ابن النديم للنشر والتوزيع   دار الروافد الثقافية ـ ناشرون

إشراف وتحرير
أ.د. عامر عبد زيد الوائلي
أ. شريف الديـن بن دوبه

موسوعة الفلسفة الإسلامية

«جدل الأصالة والمعاصرة»

تأليف
مجموعة من الأكاديميين

الجزء الأول





المحتويات

شكر وتقدير

إلى كلّ من كان حريصاً على انجاز هذا العمل

فأسنده بمقال أو تنسيق أو رفد بالمراجع

جزيل الشكر لكم...

المساهمون

الأب جوزيبي سكاتولين/إيطاليا
د. عامر عبد زيد الوائلي/العراق
د. حسن مجيد العبيدي/العراق
أ.د. عيد القادر فيدوح/قطر
د. بدران مسعود بلحسن/قطر
د. جميل حليل نعمة المعلة/العراق
د. أحمد مسعود/الجزائر
د. جمال الدين بوقلي حسن/الجزائر
د. محمد شهيد/المغرب
د. بدر الحمري/المغرب
د. بوبكر الجيلالي/الجزائر
د. حسن عالي/الجزائر
د. محمد الناصري بني ملال/المغرب
د. رحيم الساعدي/العراق
د. رابحي عبد القادر سعيدة/الجزائر
د. آيت أحمد نور الدين/الجزائر
د. محمود تركى عبد اللاه أحمد/مصر
د. محمد بن علي غليزان/الجزائر
د. محمد أحمد الصغير علي عيد/الكويت
د. حسين حمزة شهيد/العراق
د. محمد حفيان/الجزائر
د. غيضان السيد علي/مصر
د. حامد عبد الحمزة الجنابي/العراق
د. إبراهيم بورشاشن/المغرب
د. حمزة جابر سلطان الاسدي
د. محمد ممدوح عبد المجيد/مصر
د. الحاج دواق.باتنه/الجزائر
د. رحيم الساعدي/العراق
د. محمود كيشانه/مصر
د. عماد الدين إبراهيم عبد الرازق/مصر
د. ساميه صادق سليمان
د. عبد القادر بوحسون/الجزائر
أ. م. د. سامي شهيد الميالي/العراق
أ. م. د. حمزة جابر سلطان/العراق
أ. م. د. مشحن زيد محمد/العراق
د. بن يمينه محمد كريم/الجزائر
د. شريف الدين بن دوبه/الجزائر
د. محمد الأمين دكار/الجزائر
د. محمد الشيخ/الجزائر
ياسين مشتة/الجزائر
د. نورالدين علوش/المغرب
زيدي محمد علي/الجزائر
بلهاشمي هوارية/الجزائر
نوال طه ياسين/العراق
د. بركات عمار/الجزائر
رفيقة سليمي/الجزائر
د. العيد معروفي تيارت الجزائر
أحمد ماريف مستغانم/الجزائر
د. شريقي أنيسة/الجزائر
محمد رياض سلمان/العراق
د. مداسي مريم وفاء/الجزائر
فاضل منيف الشمري/العراق
د. عبد الرحمن برادي تمنراست/
سامي شهيد الميالي/العراق

الشريعة الإسلامية
والرؤية الكونية التوحيدية
رؤية مقاصدية[1]

■ د. محمد شهيد*

تنزيل الشريعة الإسلامية من أهم المعيقات التي تواجه المثقف والفقيه والداعية والمربي والسياسي... وكل الفاعلين والمهتمين بإصلاح أو تغيير المجتمع. لذلك اهتم بهذا الموضوع الأصوليون في مباحث متعددة في الاجتهاد مثلا وفي تحقيق المناط وتنقيحه وتخريجه... والفقهاء كذلك في جل المباحث عند تنزيل مختلف الفتاوى وتحقيقها...

وآفاق الشريعة لا تقف عند حدود الجغرافيا الإسلامية وبلاد المسلمين وفي احسن الأحوال عند المسلمين، بحيث إن المسلمين يتواجدون في بقاع متعددة ومتنوعة ولو تحت حكم وفي بيئة غير مسلمتين... فقد كان المسلمون قديما ولا يزالون يهتمون فقط بالمسلمين ولا يعتبرون الشريعة الإسلامية مهتمة بغير المسلمين... والحقيقة التي لا مراء فيها أن الشريعة الإسلامية منذ البداية اهتمت بالناس وبمطلق الإنسان بداية، ذلك أن من الضروريات الخمس التي جاءت الشريعة الإسلامية لتحقيقها: النفس والدين والمال والعقل النسل... فالإنسان هنا مجرد من الدين والعرق والجنس... إذ إنقاذه من الضرر وجلب المصلحة له من الأولويات بغض النظر عند الانتماء.

---

(1) نص المداخلة التي شاركت بها في الندوة الدولية المنعقدة بالرباط من طرف الرابطة المحمدية للعلماء، تحت شعار: "مقاصد الشريعة والسياق الكوني المعاصر"، في 5-6 يونيو 2012.

* مفكر مغربي معاصر.

لا تسعى هذه الورقة إلى البحث أو التأسيس لبعض النظريات من الرؤية والتصور الإسلامي في مجالات متنوعة ومتعددة، كحقوق الإنسان والبيئة والمال أو الاقتصاد والأخلاق أو المجتمع... وجل القضايا التي أثارتها، للأسباب عدة منها:

إن كل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى ابحاث أكثر عمقا في المساحة المتاحة زمانيا وورقيا... فهي من الأهمية بمكان لما تشكله من حساسية في الوقت الراهن على الأقل.

إن هذا العمل في تقديرنا من الأفضل والأصوب أن يتصدى له فريق متكامل من حيث التخصصات والزوايا التي يعالج من خلالها، ذلك أن عمل الفريق يكون في العادة أقرب إلى النضج والكمال، خصوصا إذا توفرت الشروط والظروف المعينة على ذلك...

لكن في المقابل لذلك، فإذا لم تسع هذه الورقة إلى ذلك، فهي تقصد لفت النظر إلى قضية علمية مهمة ظلت غائبة في التراث الإسلامي، أو على الأقل لم يعط لها الإهتمام الكافي، إن تنزيل الشريعة على أرض الواقع، وأي واقع؟ إنه الواقع الإنساني، وليس واقع المسلمين وحدهم!!

إنه لفترة طويلة انشغل المسلمون بتنزيل الشريعة الإسلامية على واقعه فقط، وكأن الشريعة الإسلامية تتحرك في مساحة جغرافية محددة في واقعهم فقط دون غيرهم. ولربما هذا لم يكن مقصودا بالطبع ولكنه الواقع فعلا!!

إن الإطلال من شرفة مقاصد الشريعة الإسلامية تفتح آفاق أرحب وأوسع للباحثين والعلماء للوصول إلى نتائج جد متقدمة في هذا المضمار. وأكثر من ذلك فمقاصد الشريعة الإسلامية تعطي للشريعة الإسلامية امتدادا وانسيابا ومرونة لا توصف تساعدها بشكل جلي على إضفاء البعد الكوني لهذه الشريعة السمحاء، وهو بعد ومقصد مهم جاءت لتحققه هذه الشريعة الربانية.

إن اكتمال التشريع وتوقُّف الوحي لم يفهم منه أبدا، في الشريعة الإسلامية وعند المسلمين على الأقل، أن استيعاب التحولات ومتابعة النوازل والقضايا المتجددة لم يعد ممكنا. بل على العكس من ذلك فإن الذي استوعبه

الأصوليون والفقهاء والعلماء عموما هو أن للشريعة امتداد كوني وبشري من حيث الزمان والمكان لا تملكه أية شريعة أو ديانة أو فلسفة أخرى.

ومع هذا الفهم والذي يشكِّل الجانب العقدي دورا مهما منه، فإن الوقوف عند بعض القضايا الملامسة من هذا الموضوع ظل ضعيفا وفي فترات متقطعة أو ضمن زوايا متفرقة في بطون الكتب والمصنفات وبالخصوص كتب التفسير وفقه الحديث والفقه عموما... إذ من النادر جد الوقوف على مباحث وافية وتشفي الغليل تهم أهمية مقاصد الشريعة الإسلامية والجوانب التي يمكن أن تفيد فيها غير قراءة النص بشكل تقليدي واستنباط الأحكام الشرعية، كما أمه من القليل جدا العثور على تفاصيل ضافية في مبحث أصولية تهم اعطاء بعد إنساني وكوني للشريعة الإسلامية...

إن العالم المعاصر يعرف تحولات كبرى ويشهد تطورات متتالية، وليس هذا ما يميز هذا العالم، لكن ثمة معضلات ومشكلات كبرى يتعرض لها الإنسان في هذا الكون، هذه القضايا الحارقة التي لا تقبل الانتظار والتلكأ تهدد حياة الإنسان كل الإنسان وليس العالم الإنساني وحده، وإن لم يكن للمسلمين والعرب يد طولى في هذا الوضع المأساوي، وإن كان الغرب وحده هو المتهم الوحيد في هذه الوضعية الكارثية... ومع كل ذلك فالمسلمون والفكر الإسلامي مدعوان للمساهمة وبفعالية في إنقاذ هذا الكون.

والشريعة الإسلامية تملك من الوسائل والإمكانات ما يحقق للبشرية وللكون ما يصبو له.فلذلك وانطلاقا من مقاصد الشريعة الإسلامية يمكن الوصول إلى نتائج مرضية ومفيدة تسعد الناس وتخرجهم من الضنك والضيق الذي يعيشون فيه.

إن هذه القضايا الحارقة/الموجعة/المهلكة تهدد الوجود الإنساني في أساسه، وتهدده في عقله وتفكيره، كما تهدده في استمرار نسله واستمراره على هذه الحياة، وتهدده في ماله وممتلكاته، كما تهدده في دينه وعقيدته، ومن ثم فهي تهدد الضروريات التي جاءت الشريعة من أجل تحقيقها، وهنا الدور المهم المنوط بالشريعة وبأصحاب الفكر الإسلامي ورواد مقاصد الشريعة الإسلامية.

في تعريف المقاصد:

يكاد يجزم الباحثون على استحالة العثور على تعريف لمقاصد الشريعة الإسلامية في الفترات المتقدمة في تاريخ تأليف وتدوين هذا التخصص، بل كذلك فيما يخص الكتابة في أصول الفقه، باعتبار أن المقاصد مبحث من مباحث الأصول عند كثيرين، وإن كان هناك من لا يذهب نفس المذهب حين يرى أن المقاصد علم مستقل عن الأصول. ومهما يكن التصور المتبنى في هذا المضمار فإن الفترة الأولى، أو بالضبط المرحلة التي سبقت القرن الثامن الهجري- مرحلة رائد المقاصد ومنظرها الرئيس- قد شكلت المقاصد جزء من الأصول. وإن كان هذا الإشكال-إشكال استقلال المقاصد عن الأصول-سوف يظهر بشكل لافت بالخصوص في القرن الخامس عشر الميلادي مع الطاهر بن عاشور.

وعلى كل حال فإن مقاصد الشريعة الإسلامية بقيت دون حد ودون تعريف دقيق حتى كتب الأستاذ علال الفاسي رحمه الله كتابه ''مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها''.

وقد ظل هذا العزوف وهذا الإعراض عن التعريف لغزا محيرا رغم محاولات متعددة من قبل عدد من الباحثين لتبريره وإعطاء تفسير له. فالمتابع المدقق يجد صعوبة بالغة في الاقتناع بما أوردوه من أدلة وتبريرات وتعليلات في هذا المجال. وإجمالا يمكن تلخيص أهم هذه التبريرات فيما يلي:

مقاصد الشريعة الإسلامية تخصص دقيق لا يقصده ويطلع عليه دراسة أو تأليفا إلا النخبة وأصحاب التخصص، ومن كان هذا حاله فهو في غنى عن الأبجديات الأولى للعلوم ومن ضمنها التعريفات.

إن مقاصد الشريعة الإسلامية لم تكن تشكل سوى مباحث صغيرة من أبواب أصول الفقه، ومن ثم لا يوجد داع لتخصيص حد وتعريف لها.

المصنفون والمؤلفون في مقاصد الشريعة الإسلامية كانوا يستعملون مصطلحات قريبة من معنى ومفهوم المقاصد من قبيل الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة والعلة... فكأنهم بهذا الاستعمال لم يعودوا في أمس الحاجة

إلى إعطاء حد أو تعريف لمقاصد الشريعة.

ومهما يكن فإن ما جاء به الأستاذ علال الفاسي يعتبر أقدم تعريف للمقاصد خصوصا إذا اخذ في الاعتبار أن ما ذكره ابن عاشور في ''مقاصد الشريعة الإسلامية'' تقسيما وليس تعريفا، فهو يرى أن المراد بمقاصد الشريعة...'' الغاية منها والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها''[2]. وعلى هذا التعريف مدار جل التعريفات التي أتى بها من جاء بعده.

المقدّمة الثانية: عالمية الشريعة الإسلامية:

بعث الله الرسل والأنبياء لهداية الناس وإرشادهم إلى سواء السبيل. وإذا كان الأنبياء في الأول يبعثون إلى رسلهم خاصة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: 4]، فإن النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد خصه برسالة إلى الأمم والشعوب كافة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سبأ: 28]. ورغم هذا البيان القرآني، فقد انشغل المسلمين في ميدان الدعوة الإسلامية وفي الفكر الإسلامي وفي الفقه الإسلامي كذلك في أوقات عديدة ومناسبات عدة منغلقين على ذاتهم وعلى أنفسهم غافلين عن هذا الأفق الرحب والواسع للشريعة الإسلامية.

وقد يكون منشأ هذا اللبس وهذه الغفلة من القراءة الخاطئة لقول الله عز وجل ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214].

فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال: "قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله وأنذر عشيرتك الاقربين فقال: «يا مَعْشَر قريش: اشْتَرُوا أنفُسَكم من الله، لا أُغْني عنكم من الله شيئاً، يا بَني عَبْدِ

---

(2) علال الفاسي: مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، مطبعة النجاح، ط4، 1991، ص7.

مَنافٍ لا أُغْني عنكم من الله شيئاً، يا عبّاسُ بنَ عبد المُطَّلِب لا أُغْني عنكَ من الله شيئاً، يا صفيةُ عَمَّةَ رسولِ الله لا أُغْني عنكِ من الله شيئاً، يا فاطمةُ بنتَ محمد سَلِيني ما شئتِ ما أُغْني عنكِ من الله شيئاً»" وفي بعض الألفاظ: "سَلُوني مِنْ مالي ما شئتم" وفي لفظ: "غير أنَّ لكم رَحِماً سأبُلُّها بِبلالها"[3] ومعنى قوله عشيرتَكَ الأقربينرهطك الأدنَيْن[4].

من جانب آخر فإن الخطاب القرآني وإن كان يتوجه إلى فئة وحيز محدد، فقد صاحبه التوجه العام نحو الآخر والفضاء الأرحب لنشر الرسالة وتحقيق مقاصدها. فـ ''كان هذا التخصيص مع الأمر العام بنذارة العالم''[5]. ويمكن تلمس هذا التوجه العام نحو الناس جميعا وعدم حصر الدعوة الإسلامية في دائرة المسلمين وحدهم، أو في المجال الضيق القريب من الفضاء الذي يتحرك فيه النبي صلى الله عليه وسلم، في كثير من الأدلة والحجج من بينها ما دار من حوار بين النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعلي رضي الله عنهما من جهة ووفد من شيبان بن ثعلبة في شأن التحاقهم وقبيلتهم بصفوف الإسلام والالتحاق بركب المسلمين... حيث خلص الحوار، بعد أن عرض النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام عليهم، إلى قول المثنى وهو من الوفد: ''قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة، في تركنا ديننا وأتباعنا دينك، لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر وإنا إنما نزلنا بين صريي اليمامة والسمامة. فقال رسول الله صلى الله عليه ما هذان الصريان؟ فقال: أنهار كسرى ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول، وأما ما كان من مياه

---

(3) البخاري: "الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه"، كتاب الوصايا، باب: هل يدخل النساء والولد في الأقارب؛ ومسلم: "المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم": كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

(4) ابن الجوزي: "زاد المسير في علم التفسير"، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2002، 1038.

(5) ابن عطية: "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001، 4/ 245.

العرب، فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول... فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أسأتم في الرد إذ فصحتم في الصدق وإن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه" ...[6].

إن هذا الرد الحاسم من النبي المرسل محمد صلى الله عليه وسلم، لا يترك مجالا للشك في أن الرسالة الإسلامية لا يمكن تحديد جغرافيتها وتوسعها في نطاق محدود. بل آفاقها واسعة وفسيحة للغاية.

المقدمة الثالثة: المقاصد والتغيير:

لا يمكن حصر عدد المشتغلين بمقاصد الشريعة الإسلامية عبر التاريخ. خصوصا وأن منهم صنفان. صنف وظف المقاصد وسخرها في استخراج الحكام الشرعية وفي الترجيح فيما بينها وفي مجالات أخرى. وصنف آخر اشتغل على المقاصد من حيث التنظير والتأسيس.

يهمنا هنا بالدرجة الأولى الصنف الثاني، ذاك الذي كرس جهودا مهمة من حياته في خدمة مقاصد الشريعة الإسلامية من حيث التأصيل والتنظير لها ومن حيث البناء الفلسفي لهذا التخصص المهم. ورغم أن هؤلاء أيضاً عددهم غير محدود، لكن يمكن التركيز على أهمهم لاستخلاص النتائج التي تفيد.

يبدو أن المؤسسين لهذا العلم والمنظرين له يمكن تحديدهم في بعض الرموز الهامة. يتقدمهم إمام الحرمين الإمام الجويني،وكذلك الإمام الغزالي، ثم شيخ المقاصد الإمام الشاطبي رحمهم الله تعالى جميعا.

عند دراسة الفترات التي عاشها هؤلاء، يمكن الوقوف على ملاحظة رئيسة مشتركة بين هؤلاء الثلاث وقد تصدق هذه الملاحظة على أمثالهم في هذا المضمار.

---

(6) ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1982، 1/ 189-190.

إذا استثنيت فترة النبوة ومرحلة ''دولة'' النبي صلى الله عليه وسلم التي حازت على إجماع المسلمين بحكم مكانة النبي صلى الله عليه وسلم في قلوبهم، بالإضافة إلى السياسة الرشيدة والعادلة والحكيمة التي سارت عليها أحوال الأمة... فإن باقي فترات الخلافة الراشدة لم تسلم من خلافات شديدة تطورت إلى نزاعات وصراعات دموية راح ضحيتها العديد من الناس في مقدمتهم الخلفاء والأمراء. وإذا كان الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد مات موتا طبيعيا، فإن باقي الخلفاء قد تعرضوا للاغتيال من قبل أعدائهم،وبذلك فقد مات مغتالا كل من الخليفة عمر بن الخطاب وعثمان وعلي رضي الله عنهم. وقد استمر هذا المسلسل من الشد والجذب بين الخلفاء والأمراء من جهة وبين منافسيهم على الحكم أو معارضيهم من جهة اخرى. بل كان الصراع على الإمامة والخلافة أكبر صراع عرفته الأمة الإسلامية في التاريخ حتى زعم الإمام الشهرستاني[7] بأنه وما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية أو تحت راية ولافتة دينية مثل ما سل عليها حتى قال بأن ذلك الصراع والقتال كان في كل زمان ومكان.

لا ينبغي تصور حياة المسلمين من خلال هذه الملاحظة ان تاريخهم دموي وأنهم سفاكي دماء لا غير، ولم يكن لهم من شغل إلا التطاحن والتقاتل على مصالح ضيقة شخصية مرتبطة بالسياسة والهواء الخاصة. لكن في المقابل لذلك كان المجتمع الإسلامي نشطا ومتفاعلا مع محيطه واستطاع أن يعيش عصره متفوقا ومحققا ما طلب منه دينه وشريعته.

مع هذا الصراع الشديد الموجود في فترات كثيرة في عهد المسلمين، لم يتجه علماء الإسلام إلى الكتابة في الفكر السياسي بالدرجة الأولى. ولم يهتموا بالتحليل السياسي. إذ المنطق والعقل يفرض على النخبة وعلى المفكرين في مثل هذه الظروف الاهتمام بالجانب السياسي وبالتحليلات السياسية للبحث عن الحلول للأمة الإسلامية.

---

(7) محمد بن الكريم الشهرستاني: "الملل والنحل" مؤسسة الكتب الثقافية (بيروت)، ط1، 1994، ص18.

إلا ان الذي حدث مع جل العلماء والذي كان يتصدرون ويتبوؤون المراكز العلمية المتقدمة هو غير ذلك تماما، حيث كان التوجه أصلا إلى مقاصد الشريعة الإسلامية والتأليف فيها أو في يمكن اعتباره قريبا منها. كما هو الحال مع الإمام الجويني في كتابه بالخصوص ''غياث الأمم في التياث الظلم''، وكذلك مع الإمام الغزالي في ''إحياء علوم الدين''،ومع شيخ المقاصد الشاطبي في ''الموافقات...''.

إن الإمام الشاطبي -مثلا-كتب موافقاته في آخر مراحل التواجد الإسلامي في الأندلس، وهي فترة الصراعات والاستقواء بالنصارى والأجانب... ومع ذلك استنجد بالمقاصد.

إن المقاصد الشرعية هي المائدة الأصيلة لاستحداث التغيير والاصلاح وإرجاع الأمة والمجتمع إلى سكة الصواب، وهذا بالفعل ما كان يريد الشاطبي وأسلافه تأكيده وإيصاله للناس حتى يستوعبوا هذه الحقيقة.ويتأكد ذلك خصوصا في الواقع المعاصر بفشل كل التجارب الاصلاحية المعتمدة أساسا على العمل السياسي، ذلك أن هذا العمل ما هو إلا انعكاس للفكر والثقافة والتربية التي يتبناها الانسان في نهاية المطاف. وما المقاصد في الحقيقة إلا ما يصطلح عليه في الوقت الراهن بالجانب الثقافي والتربوي الشامل.

المقدمة الرابعة: أهمية المقاصد:

الظاهر ان البحث في أهمية مقاصد الشريعة وفوائدها لم ينل حظه الوافر من العناية والاهتمام. فباستثناء بعد الاشارات العابرة عند بعض العلماء يعسر العثور على مباحث مستقلة في الموضوع.من ذلك ما أشار إليه محمد الطاهر ابن عاشور في ''مقاصد الشريعة الإسلامية'' حين أشار إلى ''احتياج الفقيه إلى معرفة مقاصد الشريعة''[8]. غير أنه في الآونة ومع التوجه الذي تعرفه

(8) محمد الطاهر ابن عاشور: "مقاصد الشريعة الإسلامية"، البصائر للإنتاج العلمي، ط1، 1998، ص119.

البحوث والدراسات في العلوم الشرعية، وبالخصوص في مقاصد الشريعة الإسلامية، بدأت تظهر بعض الإشارات المتعلقة بالموضوع.

إن العزوف عن الاهتمام بمقاصد الشريعة الإسلامية وفوائدها في شتى المجالات أمر محير.وهو ما يشبه إلى حد بعيد الإعراض أو العزوف عن تعريف مقاصد الشريعة الإسلامية عند المقاصديين وبالخصوص الأصوليين. حيث إن أهمية المقاصد ليس بالأمر المتجاوز الذي يمكن تناسيه او عدم الاهتمام به، إذ يبدو من أهم المباحث في هذا المضمار، كما يشكل لبنة أساسا في فلسفة علم المقاصد أو في ''إبستمولوجية'' علم المقاصد الشرعية. لذلك وبالخصوص في الوقت الراهن تزداد الحاجة إلى معرفة أهمية هذا الفن، وفي مجالات متنوعة غير مجال الأحكام الشرعية والفقه الإسلامي.

وكما سبق فإن أهمية المقاصد تبرز من خلال التأكيد على أرضية أخرى غير أرضية المقاصد مضيعة للوقت والجهد، وذلك للبوصلة والموجه نحو الهدف البين والغاية الواضحة الذي تحدده الرؤية المقاصدية بالنسبة للفاعل الاجتماعي والمصلح التربوي والقائد الميداني...

كما أن الجهود أيضاً ينبغي أن تنصب حول ما تتيحه مقاصد الشريعة الإسلامية من فضاءات رحبة للدعوة الإسلامية، حتى تخرج من التقوقع حول بعض المجالات التقليدية فتحصر ذاتها ورجالها وتقزم جهودها في جهة او في ركن ضيق، فتحرم نفسها، وتحرم الأمة من مجالات متعددة فتفيد وتستفيد.

إن الفترة الراهنة تبدو خصبة للدعوة الإسلامية، وبقدر ما يبدو الناس بعيدين عن التدين والهداية، فإنهم مع ذلك أقرب للاستجابة لهدي الإسلام إذا وفق الدعاة والمصلحون في اختيار الميادين والمجالات التي تجذب وتغري الشباب والناس عامة ذكورا وإناثا. وهنا لا ينبغي إغفال مجالات الأدب والقصة والمسرح والرياضة والترفيه الإيجابي والفكاهة الهادفة والعمل الجمعوي.

ومقاصد الشريعة الإسلامية إذ تفتح هذه الآفاق بالنسبة للمسلمين، فهي بالإضافة إلى ذلك تتيح للعلماء والدعاة والمتخصصين فضاء أرحب وأوسع،

إنه الفضاء العالمي والكوني. فالإسلام للناس كافة والهداية خطابه ينبغي أن يتوجه أساسا إلى غير المهتدين وهم طبعا غير المسلمين. حتى تتحقق فعلا أن الشريعة ...'' مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها''...[9] بالنسبة للناس كافة. وهذا هو المدخل الطبيعي لدراسة واقع الأمة والبشرية جمعاء. وذلك هو مدخل الموضوع الذي نحن بصدده.

المعضلة الأولى: حقوق الإنسان:

في عرضه لبعض المشكلات الكبرى العالمية المعاصرة، سماها صاحب ''الصراع على القمة'' بـ ''مشاكل موجعة''[10]. وهذا الاسم يعكس حقيقة ومستوى هذه المشاكل التي يعرفها العالم والإنسانية الجمعاء، وهي متداخلة ومتشابكة، ومن بينها مشكلة الإنسان وبالخصوص قضية ومعضلة حقوق الإنسان.ولذلك فمن النادر جدا، ولربما من المستحيل، أن يطلع الإنسان على جريدة أو دورية سياسية تتناول الأوضاع السياسية المحلية أو الإقليمية او العالمية، دون أن يكون موضوع حقوق الإنسان حاضرا فيها بقوة. بل إن موضوع حقوق الإنسان وأوضاعه تجاوز المجال السياسي والقانوني إلى الميدان الفكري والفلسفي.فقد أصبح هذا الموضوع في الآونة الخيرة موضة من موضات العصر، كما أصبح أيضاً سوطا من سياط العديد من المنظمات والمؤسسات والدول في وجه من يُتصور أو يُعتقد أنه لا يحترم حقوق الإنسان ولا يقدرها أو يكون طرفا في المس من كرامة الإنسان والاعتداء على الإنسان كإنسان.

إن العالم استيقظ في أواسط القرن الماضي على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، حيث صدر هذا الإعلان في مواده الثلاثين سنة 1948م،

(9) ابن القيم: "اعلام الموقعين عن رب العالمين"، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، د.ت 3/ 3.

(10) لستر ثارو: "الصراع على القمة"، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع204، ص267.

ليؤسس لثقافة حقوقية تتعلق بالإنسان، خصوصا وان الإنسانية كانت خارجة لتوها من الحربين العالميتين وإعادة بناء العالم فكريا وسياسيا من أجل بناء ما كان يُظن أنه مجتمع الأمن والسلم وتكريس ثقافة حقوق الإنسان.

ولقد كان للرجل الغربي طبعا أرضية وفكرة مسبقة انطلق منها في هذا المجال، ذلك ان الإرث الثقافي لليونان وللرومان هو الذي يشكل الخزان الاستراتيجي للفكر والثقافة في الحضارة الغربية عموما، وفي ثقافة حقوق الإنسان خصوصا.

ولقد تطور هذا المفهوم وازدادت اهميته مع التطورات الكبرى التي شهدتها المجتمعات العالمية خصوصا مع المعامل والمصانع ومكننتها، وأرباب المصانع والمعامل، حيث ازداد الحديث والعناية بصحة العامل وسنه وتقاعده وضمانه وحقوقه وتأمينه... في مقابل ثقافة أصحاب المعامل الذين لا هم لهم سوى زيادة الإنتاج وتطويره وجودته ولو كان ذلك على حساب حقوق باقي المتدخلين في هذه الميادين...

ولقد سار في ركب هذا التحول أيضا،غير الأوروبيين والأمريكان، سكان ما يُصطلح عليه بالعالم المتخلف او العالم الثالث مكرهين، انسجاما مع القول بأن الضعيف مغلوب على امره لا يملك إلا ان يقلد ويسير في كنف المنتصر عليه. فوجدت نفسها هذه الحكومات والدول مجبرة على الاستجابة لهذه القيم والمطالب والحقوق من قبل المواطنين.

لقد عرفت حقوق الإنسان انتكاسات كبرى في التاريخ، وتلونت هذه الانتكاسات بألوان عدة، فمرة أخذت طابعا دينيا، حين أعطى رجال الدين لأنفسهم حق التسلط على الناس من خلال التحليل والتحريم، أو من خلال تنصيب أنفسهم ممثلين لله عز وجل في هذه الأرض فيهبون الغفران لمن أرادوا وينزعونه ممن أرادوا... فاستعبدوا الناس باسم الدين. كما اعتبر الحاكم في، احيان كثيرة، نفسه ظل الله في أرضه ومن ثم له حق التصرف في اموال الناس وأعراضهم وأنفسهم، وكل معارضة لهذه الفكرة كان تواجه بسلاح التكفير وإشهار سلاح المروق من الدين والاعتراض على اوامر الله.كما عانى

الإنسان في مرحلة من المراحل من جبروت وسلطة رب المعمل. فأذله وأهانه وداس كرامته دون مراعاة لإنسانيته ولحقوقه ولكونه مشاركا فعالا في تنمية ثروته المالية والاقتصادية. ومن أسوإ ألوان الإذلال والتسلط على الإنسان وقهره والحط من قيمته وكرامته، ما شهدته البشرية لفترات متعددة من الحروب وشرورها والصراعات وعذاباتها المنطلقة أساسا من النظرة المتعصبة لقومية دون اخرى وتفضيلها بل تقديسها ورفعها إلى مكانة أعلى. فتعذب العالم كثيرا بسبب نظرية ''الجنس الآري'' أو ''ألمانيا فوق الجميع'' وكذلك ''شعب الله المختار'' عند اليهود...

إن الوضع المأساوي الذي عرفته الإنسانية دفع العديد من الفلاسفة والمثقفين إلى البحث عن صيغة تجمع الناس في الغرب على مبادئ وثقافة ترفع الحيف والظلم عن الإنسان. فكان الإعلان عن ميثاق حقوق الإنسان وما تبعه من إعلانات ومواثيق تصب في نفس الاتجاه. فبقدر وعي الناس بإذلالهم وهضم حقوقهم بقدر ما انتفضوا وهبوا لكسر طوق هذه العبودية المشينة.

لكن الذي وقع في العالم هو ان هذه الثقافة الحقوقية عرفت انتكاسات عدة بسبب الخروق التي تعرض لها الأبرياء من الأفراد وفي كثير من الحيان حتى على مستوى الشعوب والدول... وحتى الولايات المتحدة الأمريكية التي تحاول أن تضفي على نفسها صبغة أخلاقية ومسحة إنسانية، عكس واقع نشأتها وظهورها، هي الآن من اكثر المتهمين بخرق هذه المبادئ التي يُزعم أنها كونية وتواضع عليها الكون كله. حتى ظهر تشاؤم كبير حيال حقوق الإنسان خصوصا في مرحلة الحرب الباردة السابقة بين القطبين وما بعدها... فازداد العداء لهذه القوة المريكية التي كانت تبشر بهذه الحقوق'' .إن الانتهاكات التي نتجت عن الحرب الباردة كانت هائلة في ذلك الوقت، وشكلت تقليدا يصعب مقاومته، وقد أسهم هذا التقليد في تاريخ الصراعات في استمرار العداء لأمريكا، وفي بطء العمل لبناء مؤسسات ديمقراطية متينة في عدد البلدان، كما ان الثورة في مجال حقوق الإنسان خلال العشرين سنة الأخيرة قد رسخت الوعي لدى الناس بفكرة أن هذه الحقوق «تعبير أخلاقي مهيمن» في عصرنا هذا، ومن شأنها أن ترتب تكاليف على الذين يتجاهلون

قوتها الفعلية،ثم إن ممارسة القوة في ظل غياب الشرعية هدر كبير للإمكانات والموارد، ولا امل في أن يؤدي إلى النتائج المطلوبة على المدى الطويل''[11]

ويزداد الأمر وضوحا حين يتعرض طرف معين لمحنة أو نكسة كبرى. في تلك الآونة تتعرض المبادئ والمنطلقات الفكرية والأخلاقية، التي تشكل حقوق الإنسان مكونا أساسا منها، لامتحان حقيقي يُظهر مدى تمسك هذا الطرف به أو التخلي عنه لأول طلقة. فـ''بعد سبتمبر 2001 فقدت أمريكا سلطتها الأخلاقية، وهذا ما يذكرنا بموقفها خلال أواخر الستينيات ومطلع السبعينات من القرن الماضي. في تلك الآونة، في ظروف الحرب الباردة، خسرت الولايات المتحدة مصداقيتها الأخلاقية نتيجة تراكم الشواهد التي تدين فظائع جنودها في حرب فيتنام، من دعمها الأنظمة القمعية في أمريكا الجنوبية والوسطى، واستمرارها في برامج التدريب التي شرعت استخدام «وسائل متطورة في التحقيق»(التعذيب) في بلدان النصف الجنوبي من الكرة الأرضية وفي جنوب فيتنام. وأخيرا، يتعرض الموقف الأخلاقي الأمريكي للانتقاد نتيجة تنصله من الالتزام باتفاقات جنيف، والانتهاك المؤكد لكرامة بعض السجناء بعد أحداث سبتمبر، ونتيجة لاختفاء عدد من المشتبه بأنهم من الإرهابيين إثر زجهم في السجون، وقسوة التعذيب للمعتقلين والمستجوبين، والربط بين أعمالهم الإرهابية والحكومات التي ينتمون لها''[12].

بالإضافة إلى ذلك تعرضت حقوق الإنسان إلى انتقائية كبيرة وممسوخة، فإذا أراد الغرب المتفوق إشهار جهة وإعلانها انبرى لذلك مهما كانت الظروف. وقد يشهد طرف مثيل لهذه الجهة لنفس ما تعرضت له أو اكثر لكن الغرب إذا لم تكن له مصلحة وفائدة مادية أو سياسية فيه تجاهله وتناساه كأنه لم يقع ''لنقارن على سبيل المثال تجاهل المجتمع الدولي مقتل ما بين 300-500 إنسان على يد الجنود المكسيكيين في مظاهرة طلابية حدثت في شهر

---

(11) روسيميري فوت: "حقوق الإنسان في خضم الصراع"، ترجمة شاهر عبيد، الثقافة العالمية، الكويت، ع150 سبتمبر/أكتوبر 2008، ص147.

(12) روسيمري فوت: "حقوق الإنسان في خضم الصراع"، (م، س)، ص135.

أكتوبر من 1968-قبيل دورة الألعاب الأولمبية في العاصمة مكسيكو- مع تركيز الانتباه على أحداث ساحة تيانانمن في الصين بعد ذلك بعشرين سنة''[13].

إن الغرب يدوس على كل المبادئ والقيم والشعارات التي ينادي بها إذا تعرضت مصالحه للمس. وقد يتواطأ مع أشد أعدائه من أجل ذلك. وهذا ما صنعته الولايات المتحدة الأمريكية مع عدوها الكبير المتمثل في الصين الشعبية، فـ ''في العام 2002 اتفقت واشنطن مع الحكومة الصينية على ان «الحركة الإسلامية في شرق تركستان» مرتبطة بالقاعدة ومن الضروري تصنيفها كحركة إرهابية. وكان هذا الاتفاق تأثير كبير في تشويه سمعة النزاع السلمي لمجتمع «الأويغور» بإقليم خسنجيانغ في نضاله من أجل الاستقلال الثقافي والحرية. وكانت إشارات بكين المباشرة إلى هذا النزاع من اجل ضمان وضع الحركة الإسلامية بشرق تركستان على قائمة الكلمات الرسمية في الأمم المتحدة، وذكرها في المقالات والتقارير الجديدة بهدف الإيحاء للرأي المحلي والعالمي أن سياستها تجاه شعب «الأويغور» تحظى بدعم عالمي وأمريكي''[14].

أي إنسان هذا وعن أي حقوق يتحدثون ويزعمون؟؟!!

إن التقارير التي يعتقد فيها أنها مستقلة في كثير من الحيان صادمة لما تتضمنه من حقائق مفجعة، تكشف الزيف وتفضح المستور''وقد ذكر تقرير لجنة تقصي الحقائق التابعة للأمم المتحدة في العام 1999 هناك أن نحو 200 الف إنسان تم قتلهم على يد السلطات الغواتيميمالية. وأشار التقرير إلى أن المساعدات الأمريكية العسكرية كانت «تستخدم لدعم أجهزة الأمن المحلية، وتدريب قياديي القوات المسلحة على الأجهزة الحديثة المستخدمة في مواجهة العصيان، وهما عاملان حاسمان يتصلان بانتهاكات حقوق الإنسان خلال المواجهات المسلحة»''...[15].

(13) روسيميري فوت: "حقوق الإنسان في خضم الصراع"، (م، س)، ص142.
(14) روسيميري فوت: "حقوق الإنسان في خضم الصراع"، (م، س)، ص140.
(15) روسيميري فوت: "حقوق الإنسان في خضم الصراع"، (م، س)، ص139.

إن الحديث عن حقوق الإنسان في الغرب والانتهاكات التي يعرفها كثر وازداد في الآونة الأخيرة، حتى أن رائحته النتنة قد فاحت من التقارير التي تعدها المنظمات والمؤسسات التي تهتم بهذا المجال. مما يثبت ويؤكد هشاشة المنظومة الفكرية التي تتأسس عليها هذه الحقوق والمبادئ المتعلقة بالإنسان. فرغم زعمهم انها كونية وان الناس تعارفوا عليها والأديان تثبتها والشرائع تزكيها، غلا ان الواقع أكد أنها ابعد ما تكون كونية أو عالمية. ناهيك عن بعض الجوانب الخطيرة والغير الأخلاقية التي تتضمنها من قبيل الإجهاض وحق الشذوذ والمثلية...

وبذلك فالشريعة الإسلامية المنزلة من الله رب العالمين، فاطر السماوات والأرض، العليم الخبير، وانطلاقا من مقاصد الشريعة الإسلامية، بإمكانها إعطاء نفس آخر لهذه الحقوق.إذ التشريع الإسلامي حصن الحقوق الفردية والجماعية للإنسان في المجتمع بوسطية ودون إفراط أو تفريط. وليس غريبا أن تكون لب المقاصد الشرعية، وجوهرها المتمثلة في الضروريات والتي يعبر عنها أيضاً بالكليات الخمس، دائرة حول الإنسان، ذلك ان الإسلام يعتبر الإنسان هو أغلى واكبر ثروة على وجه الأرض، إلى الدرجة التي جعله الله عز وجل خليفة له في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30].

ولم تكتف الشريعة بذلك بل وضعت عقوبات، لا تحتمل التأويل والاجتهاد، ولا يحتاج القاضي أو الحاكم فيها للتقدير والبحث عن الحكم المناسب، لكل من تجرأ على الاعتداء على هذه الحقوق او انتهاكها. والحدود والعقوبات في الشريعة الإسلامية لها مكانة خاصة في نفوس وقلوب المسلمين، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: 229] إذ تنفيذ الحدود في الإسلام عبادة بدون شك.

''فحد القصاص شرع لحماية حق الحياة.

وحد الحرابة لحماية الأمن الاجتماعي.

وحد السرقة لحماية حق التملك.

وحد الزنا لحماية حق النسل، وبناء الحياة الاجتماعية.

وحد القذف لحماية حق الإنسان بسلامة السمعة والعرض.

وحد الشرب لحماية حق الفكر والإرادة، وحماية العقل مما يغتاله من الخمر والمخدرات.

فالحقوق دين، والاعتداء عليها جريمة، وعقوبة المعتدي حدية لا مجال فيها للاجتهاد''[16]

إن تكريم الإنسان في الإسلام يعتمد ركيزة أساس،هي الركيزة العقيدية المنطلقة أصلا من أن منزلة التكريم تتحدد طبقا لدرجة تقوى هذا الإنسان: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [التين: 4-6]. وهذه الركيزة هي من اختيار هذا الإنسان بإرادته ورغبته: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 123-124]. ''من هذا الاعتقاد تنطلق حقوق الإنسان في الشريعة الإسلامية، والتي يبرز الفرق واضحا بينها وبين الفكر الغربي المنظر لحقوق الإنسان. فالإسلام يرى ان الإنسان مكرم لتكريم الله تعالى له، ومنحه إياه ذلك، ويرتبط التكريم بعبودية الإنسان لربه، بينما يرى الفكر الغربي ذلك حقا طبيعيا، ينبع من السيادة المطلقة للإنسان، التي لا تعلوها سيادة''.[17]

وفي كل الأحوال فإن ''تعداد حقوق الإنسان وتسطيرها وتنظيرها، على نحو ما فعل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والاتفاقيات الدولية بشأن حقوق الإنسان، هو جري وراء السراب بدليل الواقع المعاش في العالم، وأن منهجية تفعيل حقوق الإنسان الفريدة التي يمتلكها الإسلام هي وحدها الكفيلة

---

(16) عمر عبيد حسنة من تقديمه لـ"النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية، دراسة مقارنة": محمد أحمد مفتي، وسامي صالح الوكيل، كتاب الأمة، قطر، ع25، شوال 1410، ص15.

(17) محمد أحمد مفتي، وسامي صالح الوكيل: "النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية، دراسة مقارنة"، كتاب الأمة، قطر، ع25، شوال 1410، ص35.

بحماية حقوق الإنسان على الوجه الأمثل''...[18].

إن مدار الأحكام الشرعية في الإسلام هو الإنسان، ومن ثم فـ''إن حماية إنسانية الإنسان، هو مقصد الشريعة وغايتها، ذلك أن الشريعة، إنما جاءت لتحقيق مصالح العباد، في معاشهم ومعادهم، وأن مصالحهم لا تتحقق إلا بحماية الكليات الخمس(الضروريات الخمس)، وهذه الضروريات هي: (العقل، والدين، والنفس، والعرض، والمال). وهي في الحقيقة، حقوق الإنسان الأساسية التي لا تتحقق إنسانيته، وتحفظ كرامته، إلا بتوفيرها، وحمايتها، كحق الحياة، وحق حرية التدين والاختيار، وحق التملك والتصرف، وحق بناء الحياة الاجتماعية والنسل، وحق التفكير والتعبير''[19].

المعضلة الثانية: قضية البيئة:

لقد أصبحت قضية البيئة قضية مقلقة، وتجاوزت كل الحدود الكارثية المتوقع حصولها. وأصبحت بالفعل مشكلة إنسانية تهدد البشرية جمعاء بغض النظر عن مسببها.وإذا كان للغرب اليد الطولى في إحداث هذه الكارثة الكونية، فإن باقي مكونات العالم تساهم في تأدية الكلفة الباهظة من حيث التهديد الحقيقي لوجودها. وليس المكونات البشرية وحدها هي المهددة بالزوال، بل كل الحياة وكل كائن حي قدر له العيش والحياة في هذا الواقع المهَدد.

إن الأرض والكون الذي خلقه الله عز وجل مسخرا للإنسان وفي خدمته، أصبح الآن يقض مضجعه، ويهدده في وجوده. فكأن الإنسان أصر على تحويل النعم التي انعم الله عز وجل بها عليه إلى نقم، والعيش الآمن المطمئن إلى العيش الضنك...

وهكذا فبعد الحرب العالمية الثانية، انتبهت الحركة الثقافية الفلسفية في

---

(18) منير حميد البياتي: "حقوق الإنسان بين الشريعة والقانون"، كتاب الأمة، قطر، ربيع الأول 1423، ع88، س: 22، ص135.

(19) عمر عبيد حسنة، (م، س)، ص15.

الغرب وبالخصوص في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي إطار الجهود المعارضة للحرب، إلى عدة قضايا تتعلق بمستقبل الإنسان محاولة البحث عن سبل أفضل وأمثل من اجل العيش بسلام وأمان فوق هذا الكون. وكان من القضايا التي أثارتها هذه الجهود : الحقوق المدنية، الحركة النسوية، حركة حقوق الإنسان، حركة حقوق الحيوان، وطبعا الحركة البيئية.[20] وإذا كان لابد من التعليق على هذا فإن أقل ما يمكن ان يقال هو أن الإنسان، كل الإنسان أصبح يعيش في قلق. وقد تعددت همومه وانشغالاته المؤرقة. مما أدخله دوامة خطيرة حتى أصبح قضية وجوده وزواله، قضية جوهرية. وقد ظهر في الآونة الأخيرة وشاع مصطلح الخضرة بشكل كبير ولافت للانتباه، حيث ظهرت ''العلوم الخضراء'' و''الشركات الخضراء'' و''الأبنية الخضراء'' و''المنازل الخضراء...'' وقريب منها مصطلحات من مثل ''الكيمياء البيئية'' و''الكيمياء الحيوية البيئية'' و''الزراعة الحيوية'' و''الهندسة البيئية...''.

وفي ملف مفزع يلخص احد المتخصصين هول الكارثة التي تنتظر الإنسانية والكون كله حين يقول: ''معدلات ثاني أكسيد الكربون ترتفع، الزئبق يصعد في الترمومتر، المحيطات تتسخن، الأنهار الجليدية تذوب، مستوى سطح البحر يرتفع، جليد البحار يترقق، الجمد السرمدي يذوب، حرائق الغابات تتزايد، مساحات البحيرات تتقلص، توقيت تجمد البحيرات يتأخر، جبال الجليد تنهار، فترات الجفاف تطول، كثافة البخار تزداد، جداول المياه على الجبال تجف، الشتاء يفقد لسعته الباردة، الربيع يحل قبل موعده، الخريف يتأخر، النباتات تزهر قبل اوانها، أوقات هجرة الطيور تتغير، مواطن النباتات والحيوان تختلف، الطيور تبني أعشاشها مبكرا، الأمراض تتفشى، الشعاب المرجانية تبيض، المساحات المكسوة بالجليد تتناقص، الأجناس الحية الغريبة تغزو، البرمائيات تبيض، الشواطئ تتآكل،

---

(20) مايكل زيمرمان: "الفلسفة البيئية" ترجمة: معين شفيق رومية، عالم المعرفة، ع332، أكتوبر 2006، 1/ 15.

الغابات المطيرة تجف، درجات الحرارة ترتفع عند خطوط العرض البعيدة عن خط الاستواء''[21].

أين المفر؟! إنها الكارثة!!

''إن العالم تزداد حرارته حاليا، وبسرعة... وقد ارتفعت درجة الحرارة عالميا بمقدار فهرنهايت واحدة عما انت عليه قبل قرن مضى، لكن بعضا من اكثر البقاع بعدا وأكثرها برودة قد ازدادت حرارتها بشكل ملموس وهذه نتيجة مؤسفة، فالجليد يذوب والأنهار تجف، السواحل تتآكل مما يشكل تهديدا على المجتمعات البشرية.

الحياة النباتية والحيوانية تتأثر بالسخونة أيضا... ليست هذه تصورات، وإنما حقائق على أرض الواقع. إن التغيرات تحدث على نحو واسع النطاق بعيدا عن الأبصار، لكنها لا ينبغي أن تغيب عن العقول، لأنها نذير بما يخبئه القدر لبقية الكوكب''.[22]

من جانب آخر، وفي موضوع ذي صلة بالبيئة واختلالاتها فإن الدراسات تؤكد:

''- تدهور 21 مليونا من الهكتارات من الراضي الزراعية، بحيث أصبحت زراعتها غير مجدية اقتصاديا.

- يسبب التصحر خسائر اقتصادية تقدر بنحو 26 ألف مليون دولار سنويا.

- يقدر معدل زحف الصحراء في السودان بنحو 10 كيلو مترات سنويا، كما يقدر معدل انخفاض الغابات في المغرب بنحو 30 ألف هكتار في الفترة من 1940 إلى 1981، أما في تونس فقد بلغ معدل انخفاض غابات الصنوبر نحو 1800 هكتار سنويا.

---

(21) عدنان جرجس: "الأرض تدق أجراس الخطر"، ترجمة: عبد المنعم السلمون، الثقافة العالمية، الكويت، ع132، سبتمبر 2005، ص56.

(22) عدنان جرجس: (م، س). ص58.

وقد بلغ معدل تدمير الغابات في العالم فدانا واحدا في كل ثانية، كما بلغ عدد السكان المتضررين من التصحر 57 مليون شخص طبقا لإحصاءات 1977م، في حين ارتفع هذا المعدل إلى 135 مليون نسمة طبقا لإحصاءات عام 1984م'' ...[23] ترى كيف يكون الحال في الأعوام والسنين القادمة إذا قدر الله البقاء لهذا الإنسان على هذه الأرض الجريحة؟؟؟

وبسرعة كبيرة، وبدون تردد يعلن جرجس: ''والمؤكد غالبا ان النشاط البشري هو السبب وراء معظم ما أصاب كوكبنا من احترار خلال القرن الماضي.

وهذا ما أعلنه تقرير أصدرته لجنة استشارية تمثل حكومات الدول الأعضاء في الأمم المتحدة لدراسة تغير المناخ'' ...[24].

لقد أصبح الوضع مقلقا ولا يطاق في مجال البيئة، حيث اصبح الإنسان مهددا في كل لحظة وفي كل حين. والتهديد حقيقي وليس مجازيا فمن ذلك مثلا :

''- تسرب الغاز من مصنع المبيدات الزراعية في بوبال في الهند، مما تسبب في مقتل أكثر من ألفي شخص وفي إصابة أكثر من مائتي ألف شخص بجروح أو بالعمى.

- انفجار براميل الغاز السائل في مدينة مكسيكو، مما أدى إلى مقتل ألف شخص، وحرمان الألوف من مساكنهم.

- انفجار المفاعل النووي في تشرنوبيل مسببا تساقط غبار عبر أوروبا، مما أدى إلى زيادة في مخاطر إصابة الناس في المستقبل.

- تدفق مواد كيماوية زراعية، ومذيبات، وزئبق في نهر الراين، خلال نشوب حريق في مستودع في سويسرا، مسببة هلاك ملايين الأسماك، ومهددا

---

(23) يوسف القرضاوي: رعاية البيئة في شريعة الإسلام، دار الشروق القاهرة ط2، 2006، ص216-217.

(24) عدنان جرجس: (م، س). ص59.

بالخطر مياه الشرب في جمهورية ألمانيا الاتحادية، وهولندا.

- وفاة نحو ستين مليون إنسان بسبب أمراض الإسهال الناشئة عن مياه الشرب غير الصالحة وسوء التغذية، وكان معظم الضحايا من الأطفال''[25].

إن المعطيات العلمية والميدانية، وكذا الإحصائيات المتعلقة بواقع البيئة العالمية، أقل ما يقال عنها أنها لا تبشر بالخير. هذا الاستنتاج لا يعني التشاؤم والإذعان للواقع المرير، فذلك كله لا علاقة له بطبيعة العقلية والنفسية التي يتمتع بها المسلم خاصة والفكر الإسلامي عموما.إذ نفسية مفعمة بالتفاؤل والتطلع إلى الأفضل لتجاوز كل الظروف الصعبة التي يعيشها.حيث النصوص في ذلك كثيرة جدا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف:87]، وقد جاء في تفسير الآية: ''لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه''[26]. ثم ما جاء في توجيهاته صلى الله عليه وسلم: ''عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له''[27].

من جهة ثانية وجهت الشريعة الإسلامية الإنسان إلى ''الإحسان'' حين قال صلى الله عليه وسلم: ''عن الله كتب الإحسان على كل شيء''، والإحسان مصطلح قرآني يتضمن معنيين: الإحكام والإتقان، وكذلك الإشفاق والحنان والإكرام[28].

وقد ربط القرآن الكريم بين توظيف النعم والآيات وتسخيرها لصالح البشرية، وبين الشكر له والاعتراف بفضله ومنته سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ﴾ [غافر:79-81]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ [يس:71-73].

---

(25) اللجنة العالمية للبيئة والتنمية: "مستقبلنا المشترك"، ترجمة: محمد كامل عارف، عالم المعرفة، الكويت، ع142، أكتوبر 1989، ص28.

(26) بد الله بن عمر البيضاوي (685 هـ): "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" ومعه حاشية شيخ زاده، المطبعة العثمانية، 1415، ص97.

(27) مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير.

(28) يوسف القرضاوي: (م، س)، ص120.

وقد جاء في السنة النبوية عدد هائل من النصوص التي توجه الإنسان إلى الاستفادة من النعم والخيرات دون الإفساد والتخريب، لما يعود على الطبيعة والبيئة بالضرر وعلى الإنسان من الخراب والدمار:

عن ابن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ''ما من إنسان يقتل عصفورا فما فوقها بغير حقها إلا يسأله الله عنها يوم القيامة''، قيل: يا رسول الله وما حقها؟ قال: ''حقها أن تذبحها فتأكلها ولا تقطع رأسها فترمي به''[29].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه مر بفتيان من قريش قد نصبوا طيرا-أو دجاجة-يترامونها، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا[30].

و في حديث آخر رواه أبو هريرة جاء فيه بينما كلب يطيف بركية كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها-خفها- فسقته، فغفر لها به[31].

وفي التراتيب الإدارية ان عمر بن الخطاب قال: ''لو مات جمل بشاطئ الفرات ضياعا لخشيت أن يسألني الله عنه''[32]، وأن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أهل ولاة مصر: ''بلغني ان بمصر إبلا نقالات يحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا وصلك كتابي هذا فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل''[33].

---

(29) المنذري (656هـ) الترغيب والترهيب ،تحقيق: محمد السيد، دار الفجر للتراث- القاهرة، ط1، 1421، 3/ 213.

(30) البخاري في كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة؛ ومسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب النهي عن صبر البهائم.

(31) مسلم في كتاب السلام، باب سقي البهائم المحترمة وإطعامها.

(32) محمد بن عبد الحي بن عبد الكبير بن محمد الكتاني (1382هـ): "نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية"، تحقيق علي محمد دندل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001، ص300.

(33) الكتاني "التراتيب الادارية" (م. س): ص634

كما روى البخاري في صحيحه عن ابي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ''قرصت نملة نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح؟''[34]، وروى النسائي عن الشريد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ''من قتل عصفورا عبثا عج إلى الله يوم القيامة يقول: يارب، إن فلانا قتلني عبثا. ولم يقتلني منفعة''[35]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا: ''من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار''[36] وقد علق على الحديث أبو داود قائلا: ''من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم-عبثا وظلما بغير حق يكون له فيها- صوب الله رأسه في النار''. وفي الحديث أيضا: ''إذا قامت الساعة وفي يد احدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر''.

ومن الوصايا المتميزة في تراث البشرية ما رواه يحيى بن سعيد: حدثت أن أبا بكر بعث جيوشا إلى الشام، فخرج يشيع يزيد بن أبي سفيان، فقال: ''إني أوصيك بعشر: لا تقتل صبيا، ولا امرأة، ولا كبيرا هرما، ولا تقطعن شجرا مثمرا، ولا تخربن عامرا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة، ولا تغرقن نخلا، ولا تحرقنه، ولا تغلل، ولا تجبن''[37].

وفي التوجيه القرآني إلى التوحيد الذي ينشده الإسلام، يجيب موسى عليه السلام وقد سأله فرعون وهو مع أخيه هارون عن ربهما: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۞ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [طه: 50-51].

أما عن البحر والاستفادة منه فيقول الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ

---

(34) مسلم في كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل.

(35) النسائي في كتاب الضحايا، باب مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا بِغَيْرِ حَقِّهَا.

(36) جلال الدين، السيوطي (911هـ): "الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير" دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط، ت، 2668.

(37) الإمام مالك: "الموطأ"، كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو.

ٱلْبَحْـرَ﴾ [النحل: 14]، وكذلك قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ﴾ [المائدة: 96].

هذا الغيض من الفيض الهائل من النصوص والتوجيهات السماوية الذي جاءت به الرسالة الإسلامية، بإمكانه ان يؤسس لنظرية متوازنة تساهم بشكل فعال في الحفاظ على البيئة ورعايتها من كل ما لحقها من هذا الإنسان الضال. فقد شرع الإسلام أحكام متعددة تساهم في تحقيق الحفاظ على البيئة من ''... أن تعمل فيها يد الإنسان بتصرفات تخل بنظامها، أو تعطل مقدراتها على أن تكون صالحة للحياة منمية لها، أو تربك توازنها الذي تقوم عليه عناصرها المختلفة، وقد جاءت تلك الأحكام متضافرة كلها على منع الإنسان من ذلك، وأمره بأن يبقي على الطبيعة صالحة كما خلقها الله، وأن يمارس عليها مهمة الخلافة على ذلك الوجه من الصلاح''[38]. ولأهمية ما ورد من تشريعات في هذا المجال، وكذلك مراعاة للأوضاع البيئية العالمية، فإن بعض المفكرين جعلوا من حفظ البيئة مقصدا من مقاصد الشريعة الإسلامية وكلية من كلياتها[39].

المعضلة الثالثة: قضية الاستهلاك

في فطرة الإنسان سلوك نزاع إلى الاستهلاك والترف والتبذير. فإذا حضر الوازع والموجه والمؤطر إلى الخير والصلاح للفرد والمجتمع والأمة والبشرية جمعاء، انخفض مؤشر هذه السلوك الخطير والمقلق. أما إذا انفلت هذا الإنسان من عقال وقيود التوجيهات السوية والحكيمة، ضاع كل شيء ودقت طبول ونذر الدمار والخراب في كل مكان.

إن الإنسان المعاصر بالخصوص، يصر على الانعتاق من كل ما يتصوره قيودا تكبح حركته وتلجمها حتى لا يقع في المحذور، فصنع لنفسه كوكبا كله قلق وكله توجه نحو المجهول!!! فقتامة صورة الوضع ومستقبله، إذا ما سارت

---

(38) عبد المجيد النجار: "مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة"، دار الغرب الإسلامي، ط2، 2008، ص209.

(39) انظر: عبد المجيد النجار: (م، س)، ص207.

الأمور على ما هي عليه، يمكن تصورها إذا علمنا طبقا للإحصائيات والدراسات أن ...'' في القرن القادم سيكون فقط 20% من السكان، الذين يمكنهم العمل والحصول على الدخل والعيش في رغد وسلام. أما النسبة الباقية -80%- فتمثل السكان الفائضين عن الحاجة، الذين لن يمكنهم العيش إلا من خلال الإحسان والتبرعات وأعمال الخير''[40]، أكثر من ذلك ف ''إن 358 مليارديرا في العالم يمتلكون ثروة تضاهي ما يملكه 2,5 مليار من سكان المعمورة، أي ما يزيد قليلا عن نصف سكان العالم. وأن هناك 20% من دول العالم تستحوذ على 85% من الناتج العالمي الإجمالي، وعلى 84% من التجارة العالمية، ويمتلك سكانها 85% من المدخرات العالمية''، وليت الأمر يقتصر على ذلك، إذ يزداد الوضع قتامة إذا علم أن ''هذا التفاوت القائم بين الدول يوازيه تفاوت آخر داخل كل دولة، حيث تستأثر قلة من السكان بالشطر الأعظم من الدخل الوطني والثروة القومية، في حين تعيش أغلبية من السكان على الهامش. وهذا التفاوت الشاسع في توزيع الدخل والثروة سواء على الصعيد العالمي او على الصعيد المحلي لم يعد بالأمر المزعج، بل بات في رأي منظري العولمة مطلوبا في حلبة التنافس العالمي الضاري''[41].

إن السياسات الاقتصادية العالمية لم تفلح في إزاحة الأزمة المعاصرة العالمية، وإخراج العالم إلى بر الأمان، مما دفع الوضع إلى الحالة الكارثية. ومما زاد الطين بلة تشابك الخيوط المؤدية إلى هذا النفق المظلم، حيث ''إن الفقر يسمم حياة ما يقرب من نصف سكان المعمورة. من ناحية أخرى، أخذ الدمار اللاحق بالبيئة يحطم قدرة الكوكب الأرضي على تقديم المتطلبات الضرورية لحضارة انسانية. فالأوبئة الجديدة والأوبئة القديمة ما عاد في الامكان مكافحتها وذلك لأن مناعة الجراثيم حيال المضادات الحيوية تزداد انتشارا من يوم لآخر. أضف إلى هذا، ان ملايين من بني البشر قد صاروا

---

(40) هانس بيترمارتين وهارالد شومان: "فخ العولمة" ترجمة وتقديم عدنا عباس علي، ومراجعة وتقديم رمزي زكي، عالم المعرفة، الكويت، ع295، ط2، أغسطس 2003، ص9.
(41) (م. س)، ص11.

يئنون تحت وطأة تفاقم اللامساواة والاضطراب الاقتصادي وشيوع الصراعات الدموية''[42].

ارتبط نمط العيش في الوقت المعاصر على الصعيد العالمي، بالاستهلاك. فالهم الاول للإنسان في العالم هو الاستهلاك، وإمتاع نفسه بغض النظر عن كل المعطيات المادية التي في ملكيته، وكل الوسائل التي يمكن ان توصله إلى غرضه وهدفه، ضاربا كل الاعراف والقيم عرض الحائط... إن الإنسان المعاصر يريد المتعة والرفاه وهو يدوس على القيم ولا ينضبط بأي ضابط... ''فنحن نجلس إلى مائدة الغذاء، ويلتقط كل منا شوكة، ويرتشف رشفة من العصير، غير مدركين آثار التداخل الكوني على اطباق غذائنا، فاللحم يأتينا من أيوا، من أبقار تتغذى على الذرة من نبراسكا، والأعناب تأتينا من تشيلي، والموز من هندوراس، وزيت الزيتون من صقلية، أما عصير التفاح فهو لا يأتي من ولاية واشنطن، لكن عبر طريق طويل من الصين. لقد خفف علينا المجتمع الحديث من اعباء الزراعة والحصاد، وحتى من عبء إعداد خبزنا اليومي، في مقابل تحمل عبء دفع ثمن كل هذا ببساطة، ولا ننتبه إلا عندما ترتفع الأسعار، وتكون عواقب عدم انتباهنا شديدة التأثير''[43]، وهذه مظاهر أخرى من مظاهر الأزمة...

إن هذا النمط من العيش المرتبط أساسا بالاستهلاك ضاعف متطلبات الحياة، فالحياة التي كان يمكن للإنسان أن يحرص فيها على الضروريات فقط، ونادرا ما كان يتجاوزها إلى بعض الكماليات، أصبحت أكثر تعقيدا، بحيث حتى مفهوم الضروري والكمالي تغير جوهريا وفق الزمان والمكان. كما زاد هذا في عمق الأزمة وتجذرها، بحيث ازداد على كاهل الدولة الكثير من الأثقال والأعباء التي هي أصلا ملزمة بتحقيقها للعموم. وهكذا فمثلا بألمانيا ''في عام 1970 كان عدد من هم في حاجة إلى المعونات الاجتماعية أقل من

---

(42) هورست أفهيلد: "اقتصاد يغدق فقرا"، ترجمة عدنان عباس علي، عالم المعرفة، الكويت، ع335، يناير2007، ص206.

(43) جويل ك. بورن.ج.ر.: "نهاية الوفرة"، ترجمة: حمدي أبو كيلة، الثقافة العالمية، الكويت، ع162، سبتمبر/أكتوبر2011، ص68.

1,5 مليون مواطن؛ وفي عام 2002 ارتفع هذا العدد إلى ما يزيد على 4,5 مليون مواطن. لماذا يزداد الأهالي فقرا على الرغم من ارتفاع الناتج القومي إلى الضعف؟ من أي طينة هو هذا الاقتصاد الذي يتزامن فيه تضاعف الناتج القومي مع انتشار الفقر في المجتمع؟ وإذا كان العجز المالي قد صار يخيم على كل المناحي، فإلى أين تسرب إذن الفائض الذي حققه الاقتصاد الوطني في سياق عملية الانتاج؟''[44]. وهذه أيضاً أسئلة مشروعة في هذا الوضع الذي صارت الأزمة فيه متشابكة ومتداخلة الخيوط والخطوط، محليا وقطريا وعالميا...

إذا كان هذا هو الحال في ألمانيا المعدودة ضمن الدول القوية القادرة على توفير حاجيات مواطنيها، فكيف سيكون الوضع في دول أخرى تعتبر فقيرة، او في أخرى أكثر ما يتمنى مواطنوها هو سد رمق العيش والحصول على أقل ما يمكنه التوصل إليه لمحاربة الجوع والموت؟؟...

لقد عمق فكر العولمة والكونية الأزمة، فالإعلام والصورة والسينما والصحافة نمطت العالم ووضعت تفكيره وذوقه وأحاسيسه في قالب واحد يصنع في الغرب، في مدارس هوليود أو باريس او لندن...

وحتى حاجيات هذا الإنسان الاستهلاكية لم يعد حرا في اختيارها، فهي كذلك تكون تحت رحمة الصناعة الاستهلاكية في الغرب، '' ...وقبل أن يصل بنطلون الجينز إلى المحل التجاري الألماني، غالبا ما يكون هذا البنطلون قد جاب انحاء العالم: فهو ينتج في الصين من نسيج جرى تصنيعه في كوريا الجنوبية؛ وأزرار من إنتاج بريطانيا، اما قطعة القماش المكتوب عليها اسم الشركة المنتجة فإن إنتاجها وخياطتها أمران تتكفل بهما الصناعة المنزلية في الولايات المتحدة الأمريكية'' ...[45].

هذه الطريقة في الاستهلاك، وبالتزامن مع مشكلات أخرى متداخلة معها زادت في هموم الإنسان المعاصر وأرقته. فالطريقة التي يدار بها الاقتصاد

---

(44) هورست أفهيلد: "اقتصاد يغدق فقرا"، ص17.

(45) هورست أفهيلد: "اقتصاد يغدق فقرا"، ص243.

العالمي، والمؤثرون فيه والفاعلون الأساسيون، زاد من حدة الضغط الكبير على المواطن العادي فدفعته إلى التشاؤم من الحياة والاندفاع بشكل مريب إلى الانتحار والموت، وهكذا فقد ارتفع عدد الفلاحين في الهند المقبلين على الانتحار : ''ففي ولاية أندرا براديش، ارتفعت حالات انتحار المزارعين من 233 حالة في العام 1998 إلى 2600 حالة في العالم 2002، وفي ماهاراشترا، تضاعفت حالات الانتحار بأكثر من ثلاثة أمثال، من 1083 حالة في العام 1995، إلى 3926 حالة في العام 2005. وتشير إحدى التقديرات إلى أن هناك حوالي 150 ألف مزارع هندي كانوا قد أخذوا حياتهم بأيديهم خلال السنوات القليلة الأخيرة''[46]. ومن أهم الدوافع والأسباب الموصلة إلى هذه الوضعية الكارثية،هذا الخط الفكري للاقتصاد العالمي الذي يشكل البنك الدولي أحد اهم اللاعبين والفاعلين فيه. فبدلا من السماح للسكان من ابتكار وإبداع حلول ذات طابع محلي أصيل يمكن من تجاوز الأزمة الزراعية ''يقوم البنك الدولي حاليا بتشجيع استراتيجية تنمية جديدة تعتمد على زراعة الشركات الضخمة في الوقت نفسه الذي يخلق فيه احتياطات «محمية» في الأماكن التي يحاول فيها السكان المهمشون كسب ما يقيم أودهم بصعوبة بالغة اعتمادا على زراعة الملكيات المشاعية المشتركة، التي لا يرى لها البنك الدولي أي مستقبل''[47].

هذه صورة مصغرة عن الوضع الذي يعيشه الإنسان في العالم، وفي مختلف البلدان. يتساوى فيه الإنسان في البلدان التي تصنف على أنها متقدمة أو ذاك المحسوب على البلدان المعدودة متخلفة، يتساوى فيه أيضاً الإنسان من مختلف الأعراق والأجناس، كما يتساوى فيه الإنسان من مختلف الأديان كذلك... إنها الكارثة التي حلت بالإنسان والكون عامة، بما فيه من جماد ونبات وحيوان... حتى البريء من هذه المخلوقات مهدد هو أيضا... فإذا كان الرجل الأبيض أو الغربي هو المسؤول الأول عن هذه الوضعية العالمية، بفعل

(46) والدن بيلو ومارا بافيرا: "حروب الغذاء"، ترجمة: إنصاف الباير، الثقافة العالمية، الكويت، ع162 سبتمبر/أكتوبر 2011. ص48.

(47) حروب الغذاء، ص45

ما اقترفت يداه من جرائم تخص البيئة والمال والحياة عامة، لفرط اقباله على الاستهلاك وبشكل جنوني فاق كل التقديرات والتوقعات، فإن الذي يدفع الثمن الآن هو باقي سكان الأرض جراء ما لحق أرضه من تدمير وما لحق زراعته من كساد واقتصاده من كساد وبوار...

إن النجاح والتفوق الإقتصادي الذي يعرفه الغرب في هذه المرحلة، نسف كل القيم والأخلاق وقوضها من الأساس، فقضى على قواعد السلوك والمعاملات التي تدعو إليها الفلسفة الغربية والاقتصاد الرأسمالي. فاندثرت العديد من القيم والأخلاق والخصال الحميدة من مثل ''الجد وعدم التبذير والسلوك الحسن والصبر والإخاء والمروءة والشجاعة.ففي مجتمعات الرفاهية والمسرفة والوفرة الفائضة عن الحاجة، نرى تلك الصفات الحميدة قد مسخت وشوهت أضعافا مضاعفة، أو نرى قيما جديدة وأنماط سلوك مستحدثة تحل محلها...

وهكذا، يمكن ان تنقلب الفردية الانعزالية فتتحول إلى النرجسية والأثرة، والإخاء إلى السلوك الجمعي غير المتعقل والمتكتل في مجموعات تؤم المراقص وحفلات موسيقى روك آند رول، وحق تقرير المصير إلى فوضى خُلقية... كما لمسنا في الصيحة التي ترددت سنوات في الغرب على ألسنة الدعيات الداعيات إلى تحرير المرأة وحقها في أن تفعل بالجسد ما تشاء،مثل الإجهاض(بطني لي وحدي!)، وتنقلب حرية الفكر وعدم التحيز إلى إلى إباحية مطلقة، والتسامح والسماحة إلى حيدة القيم، والتنافس المشروع إلى جنون الاستهلاك والحرص على متاع الدنيا، والمساواة إلى التسوية الآثمة التي لا تميز بين الخبيث والطيب والغث والسمين... ورفاهة الحس إلى الولولة اليائسة، وتنقلب التقوى والخشية إلى الفزع والجزع، والشهوة الجسدية المشروعة إلى جنون الجنس واستعراض المهارات الجنسية، وينقلب السعي الجاد النشط إلى استبعاد العمل واستبداده للإنسان كدحا، وتنقلب المرونة إلى عداء أعمى للتراث أو لكل ما يعد تقليديا''[48].

---

(48) مراد هوفمان: "الإسلام كبديل''مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام والخدمات ومجلة النور الكويتية، ط1، 1993، ص28.

هذه نتائج الجشع والنهم وفلسفة الاستهلاك المتهور، وهذه بعض انعكاساتها على الفرد والمجتمع، وهذه بعض آثارها على السلوك والقيم!!

إن شريعة الإسلام التي رغبت في الكسب والرزق وحببت السعي إليه ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: 10]، فإنه بالمقابل لذلك حرص على تسخيره وتوظيفه أحسن توظيف فيما يحقق مصلحة الأمة ووفق ضوابط الشريعة الحكيمة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: 205-206]، وقد جاء في الحديث: ''ما من مسلم يغرس غرسا او يزرع زرعا فيأكل منه طير ولا إنسان إلا كان له به صدقة''[49] وكذلك ما جاء في حديث آخر: ''من أخذ من اموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله''[50]... دون إغفال عدد من النصوص والتوجيهات القرآنية والنبوية التي تحارب الإسراف والتبذير: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: 141] وكذلك قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۞ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: 25-26]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: 31]... وما جاء في الحديث أن الله عز وجل يسأل يوم القيامة الإنسان عن أشياء عدة من بينها ''عن ماله فيم اكتسبه وفيم أنفقه''[51] وكذلك ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال: ليس له من ماله إلا ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو تصدق فأمضى[52].

وقبل كل هذا فللشريعة الإسلامية تصور متميز للمال، فهي تعتبر المال كله لله وأن ليس للإنسان إلا مهمة الاستخلاف، ومن ثم فهو ملزم بأداء الأمانة على أحسن وجه، ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ

(49) مسلم: كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع.

(50) البخاري: كتاب الاستقراض، باب من أخذ من أموال الناس يريد أداءها.

(51) الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب في القيامة وشأن الحساب والقصاص.

(52) مسلم: كتاب الزهد والرقائق.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الحديد: 7] فالمال ''لله جعل الناس كالخلائف عنه في التصرف فيه مدة ما، فلما أمرهم بالإنفاق منها على عباده كان حقا عليهم أن يمتثلوا لذلك كما يتمثل الخازن أمر صاحب المال إذا أمره بإنفاذ شيء منه إلى من يعينه''[53].

الحوار مع الحنفاء

القضايا الموجعة أو لقضايا الحارقة لتي تواجه البشرية تحتاج إلى من يرفع هذا التحدي ويبحث عن الحل المناسب لإخراج البشرية جمعاء والكون كله من هذه المحنة التي لا تبقي ولا تذر. فالمسلمون يعتقدون جازمين أن الحل في دينهم وشريعتهم، ومع ذلك فهم مدعوون إلى تكثيف الجهود وتقويتها مع كل الأطراف القادرة على طرح حلول مناسبة لهذا الوضع الكارثي.

إن الوضع الذي تعيشه البشرية يمكن تلخيصه على الشكل الآتي: ''الأرض واحدة لكن العالم ليس كذلك. ونحن جميعا نعتمد على محيط حيوي واحد للإبقاء على حياتنا. ومع ذلك فإن كل مجتمع، وكل بلد يكافح من أجل البقاء والرفاه من دون اعتبار لأثر ذلك عن الآخرين. والبعض يستهلك موارد الكرة الأرضية بمعدل لن يترك سوى القليل للأجيال المقبلة. وآخرون، أكثر من ذلك عددا، يستهلكون القليل جدا ويعيشون على حافة الجوع، والقذارة، والمرض، والموت المبكر''[54].

البشرية تسعى إلى الرفاه والعيش الرغيد، وبالموازاة مع ذلك لا تعير أي اهتمام للواقع العالمي من حيث البيئة ومن حيث الحفاظ على الثروات والإمكانات التي تتمتع بها الأرض والكون كله. وهذه هي المعضلة الحقيقية التي يعرفها الإنسان المعاصر.

ومع كل هذا الإفراط في ''التشاؤم'' فإن الله عز وجل وضع في هذا

---

(53) محمد الطاهر ابن عاشور: "التحرير والتنوير" الدار التونسية للنشر، (د، ت)27/ 369.

(54) اللجنة العالمية للبيئة والتنمية: "مستقبلنا المشترك"، ص61.

الكون ما يكفي من المبشرات، حتى لا يضيع الأمل في هذا الكون ويبقى لتطلع إلى المستقبل حاضرا في النفوس وفي القلوب. من أهم هذه البشائر أن الغرب ليس على قلب رجل واحد، وفيه الكثير من العاقلين والواعين بخطورة ذا الوضع العالمي. وهذا خيط رفيع يمكن أن يلتقطه العلماء والمتخصصين لإنقاذ ما يمكن إنقاذه في هذا الكون. فالاعتقاد الذي يسود عند الكثيرين والذي مفاده أن الغرب كله شر، وأن الغرب نزاع إلى الفساد وإيذاء الناس دئما، وأن لا هم للرجل الأبيض سوى التدمير وإهلاك الحرث والنسل، وأنه أناني لا يلتفت إلا إلى مصالحه... اعتقاد يحتاج إلى مراجعة وتدقيق. ذلك أن حكمة الله عز وجل أن جعلت الناس مختلفين ومختلطين من حيث الطباع والفطرة، فليس كلهم أشرار، كما أنه ليس كلهم أخيار.

إن في عالم الغرب[55] اليوم العديد من الفئات الناقمة على توجهه وعلى نمط عيشه وعلى الاستراتيجيات التي يختارها سواء سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا أو حضاريا... وهؤلاء يعانون ويكابدون ويعيشون ظروفا نفسية صعبة، بل يعيشون غرباء في بلادهم وفي أوطانهم" ...فقد انطلقت صيحات الخطر في الغرب تدوي ما يزيد عن قرن من الزمن منادية بتجديد وهدم المنطق المنطق الذي يحكم سير الأشياء في حضارتهم. ويمثل هذه الصيحات عدد كبير من المفكرين والفلاسفة والشعراء والكتاب، نذكر من بينهم ألدروس هاكسلي... وجورج أورويل، وديفد هربرت لورنس، وإليوط وطوماس هارديورامبو وأندري بروطون وبليز سوندرار وألبير كامي وساموبل بيكيت...

ويمكننا إدراج بعض الظواهر الاجتماعية التي تعرفها المجتمعات لغربية كـ "الهيبزم" و"البانك" وباقي الحركات التي تشكل في العمق محاولات للخروج من التاريخ ومن الزمن الغربيين"[56]

---

(55) المقصود هنا الغرب الثقافي وليس الجغرافي، ذلك أن دولا عدة وإن كانت جغرافيا تنتمي إلى الشرق فهي ثقافيا وحضاريا تنتمي إلى الغرب.

(56) خالد حاجي: "الجغرافيا بين الشاعرية والسياسة نماذج من الفكر الغربي المعاصر" المنطلق، وجدة، ع10/ 1995، ص60.

وإذا كان الأمر كذلك فالمسلمون يلتقون مع هؤلاء في الكثير من القضايا الحارقة والمهمة في هذا الواقع المرير. فما المانع من الالتقاء بهم والجلوس معهم؟ أليس في مجالستهم وتبادل الرأي معهم تحقيق لمقصد مهم من مقاصد الإسلام؟ أليس في بحث هذه القضايا الموجعة معهم مدخل مهم من أجل تحقيق وصون أحد الضروريات الخمس لمتمثل في حفظ النفس مثلا؟

إن النبي صلى الله عليه وسلم قبل بالدخول في ''حلف الفضول'' بدون تردد لما فيه الفائدة والمصلحة للناس أجمعين وليس للمسلمين فقط، ذلك أن الناس بهذا الحلف ...'' تعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته''[57] إدراكا منه صلى الله عليه وسلم للأبعاد الحقيقية التي تمتاز بها الشريعة الإسلامية وبالخصوص الكونية والعالمية ولو كان التنزيل هنا على المستوى المحلي فقط. فالنبي صلى الله عليه وسلم محا وحارب بفعله هذا كل تمييز على أساس عرقي وجنسي وعقدي... خصوصا حين يكون الإنسان مهددا في وجوده بالأساس.

إن العديد من ''حنفاء الغرب'' في الوقت الراهن ناقمين وساخطين على الفلسفة والثقافة التي اختارها الغربيون، فهم قلقون على مستقبل الإنسان وعن المآل الذي ينتظره في المدى القريب. هذا القلق يشتركون فيه مع المسلمين ومثقفيهم وبقي العالم والكون الذي يتهدد مصيره وأصبح الغموض والأسوأ يحف مستقبله. لذلك من المهم للمسلمين في هذه الآونة الحوار مع ولاء وإطلاعهم على ما يمكن للإسلام أن يقدمه للبشرية وأن الإسلام يهمه في الأساس مصلحة الناس والكون كله. وهذا مقصد مهم من مقاصد الإسلام، ووسيلة مهمة من الوسائل المؤدية إلى مقاصد أكبر وأهم. فالتعارف مع الناس وبين الشعوب والأمم مقصد مهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ

---

(57) ابن هشام: "سيرة النبي صلى الله عليه وسلم" تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، 1981، 1/ 145.

شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]، لكنه غير مقصود في ذاته، بل مقصود من أجل مقصد آخر هو تحقيق التعاون والتكاثف من جل البر والخير وما يفيد البشرية ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: 2].

لذلك فإن اصلاح الناس وتغيير واقعهم، لم يشترط الله فيه أن يكون من العرب وحدهم، لذلك ''...لا نحصر الأمل بالخير في جهة بعينها، ولا ندري شيئا عن سياسة الخالق في إصلاح خلقه، فليس شرطا لصلاح المسلمين أن يبدأ الصلاح بهم، وأن يظهر الخير من أرضهم، وان تكون تباشير صحوتهم بإيقاظ ذاتي يتم فيما بينهم.

قد يتدارك الله هذه الأمة بإصلاح حالها، وإيقاظ، ضميرها، وإعادتها إلى رشد الاعتزاز بدينها، ولكن، لأمر ما، تقتضي حكمته ان يكون المنبه إلى ذلك والدافع إليه، يقظة الغرب من رقدة ضلاله، وصحوته الفكرية والنفسية إلى حقائق الإسلام التي تخر لها اليوم خاشعة جبهة المنطق والعلم''[58].

ولن يكون هذا البر والتقوى الذي تسعى الشريعة إلى جلبه، وهذا لإثم العدوان الذي تسعى إلى درئه في هذه المرحلة سوى إنقاذ الإنسان من المصير السيئ الذي ينتظره. وهذا البر والتقوى أو الإثم والعدوان من الصعوبة ولمشقة لعظمى ما لا يستطيع القيام بجلبه أو درئه جهة وفئة دون أخرى، إذ من اللازم التكاثف والتعاون من أجل تحقيق هذا المقصد النبيل.

وقد كان المرحوم رجاء جارودي نبه إلى نوع من الحوار يمكنه أن يؤطر الجلوس والحديث إلى ''حنفاء الغرب'' حين قال: ''إن حوار الحضارات أصبح ضرورة عاجلة لا سبيل لردها.إنه قضية بقاء. لقد بلغنا حد الخطر.بل لعلنا تجاوزناه''[59].

---

(58) محمد سعيد رمضان البوطي: "الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية لماذا؟ وكيف؟" دار الفكر-دمشق-ط: 1، 1984، ص8.

(59) روجيه غارودي: "وعود الإسلام" ترجمة مهدي زغيب، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1984، ص23.

كما أن الحوار مع عقلاء العالم والغرب أصبح ''...فريضة وضرورة لنا،حتى يفهم ما نريد لأنفسنا وللناس، وأننا أصحاب دعوة لا طلاب غنيمة، ورسل رحمة لا نذر نقمة، ودعاة سلام لا ابواق حرب، وأنصار حق وعدل لا أعوان باطل وظلم، وان مهمتنا ان نأخذ بيد الإنسانية الحائرة إلى هداية الله، وان نصل الأرض بالسماء، والدنيا بالآخرة، والإنسان بأخيه الإنسان، حتى يحب كل امرئ لأخيه ما يحب لنفسه...''[60].

الخطاب الإسلامي المعاصر:

الشريعة الإسلامية هي الأساس، والقرآن الكريم هو المنطلق. لكن ترجمة هذه المبادئ والمنطلقات إلى إجراءات عملية تحتاج إلى وسيلة أو إلى أسلوب يمكن من تصريفه وإيصاله إلى المتلقي او المستمع أو المكلف عموما.هذه الوسيلة او الأسلوب هي ما يمكن ان يعبر عنه بالخطاب. والخطاب الإسلامي وسيلة هامة وفعالة وظفت وسخرت بشكل مثالي طيلة فترات الدعوة الإسلامية منذ الفترة الأولى للرسالة الإسلامية. وقد كان الخطاب الإسلامي يتميز منذ بداية ببعض الخصائص المهمة التي مكنته من سحر قلوب الناس وأسر نفوس مستمعيه ولو كانوا من الكفار ومن خارج الدائرة الإسلامية. ولعل من أهم هذه الخصائص خاصية الواقعية. فلم يكن خطاب الإسلام مجردا ومثاليا بعيدا عن واقع الناس، بل كان يراعي ظروفهم وخصائصهم، ويركز على ما يفيدهم وما يخدم مصالحهم. من ذلك أن ربعي بن عامر حين دخل على الفرس في قصرهم ولاحظ العبيد وهم يذلون في القصر ويستعبدون، كما لاحظ قصر أفقهم، والظلم والجور لذي يعانون منهم، فرد على سؤال أميرهم عن سبب مجيئهم، قال كلمته لمشهورة: ''الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة الناس إلى عبادة رب الناس...''.

إن الخطاب الإسلامي في تجربته الأولى استطاع بتوظيف كل امكاناته

---

(60) يوسف القرضاوي: "أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة"، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط13، 1992، ص175.

وقدراته استنصات العقل الآخر مستثمرا مصطلحاته ومضامينه التربوية والثقافية والحضارية، فحرك في العقل الآخر مشاعر الإنسان ووجدانه مسخرا الحجج والبراهين، وفلسفة الرحمة والرشد والهداية، والحوار الهادئ المثمر والمجادلة بالتي هي أحسن.

يرى الأستاذ بيجوفيتش أثناء تقديمه لكتابه ''الإسلام بين الشرق والغرب'' أنه ''كان على الإسلام الذي يحتل موقعا وسطا بين الشرق والغرب أن يصبح على وعي برسالته الخاصة. والآن، وقد صبح من البين أكثر وأكثر أن هذه الإيديولوجيات المتضاربة بأشكالها المتطرفة-لا يمكن فرضها على الجنس البشري، وانها يجب أن تتجه إلى مركب جديد وموقف وسطي جديد-نود أن نبرهن على ان الإسلام يتسق مع هذا الأسلوب الطبيعي من التفكير، وأنه التعبير الأكثر تناغما معه. وكما كان الإسلام في الماضي ''الوسيط'' الذي عبرت من خلاله الحضارات القديمة إلى الغرب، فإن عليه اليوم مرة أخرى -ونحن في عصر المعضلات الكبرى والخيارات-ان يتحمل دوره ''كأمة وسط'' في عالم منقسم. ذلك هو معنى الطريق الثالث، طريق الإسلام''[61]. وذلك ما سعى إلى تحقيقه بالفعل طيلة كتابه الممتع والمفيد.

ولقد آن لأوان مجددا للخطاب الإسلامي المعاصر ليقول كلمته في ظل هذه التحديات الحارقة الفانية، فالمسلمون مدعوون إلى الارتفاع بخطابهم إلى مستوى إسلامهم وعصرهم، ليقرؤوا الوضع الداخلي لهم وللعالم على أرضية الإسلام مسترشدين بمقاصد الشريعة الإسلامية، للخروج بهذا الكون إلى بر الأمان.

إن القرآن الكريم وجيل القدوة الأول وظف وسائله أفضل توظيف، فلم يقف مطلقا عند ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فقط واستنصات المؤمنين والحديث إليهم، بل التفت أيضاً إلى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ليوسع من دائرة المخاطبين وإشراكهم في إعمار الأرض، إدراكا ووعيا بأن الحياة على وجه هذا الكون

(61) علي عزت بيجوفيتش: "الإسلام بين الشرق"، مؤسسة العلم الحديث، بيروت، ط1، 1994، ص37.

ليست ملكا للمسلمين وحدهم، بل هي مشترك إنساني يساهم فيه الجميع.

والحوار مع حنفاء الغرب المتطلعين إلى حلول تخرج الكون مما يعانيه من أزمات ومعضلات، يتطلب تجديدا في خطاب المسلمين المعاصر لاحتواء هذه المتغيرات والمستجدات. فلابد من تجديد في هذا الخطاب يستحضر الإدراك المتجدد للمتغيرات والتحولات التي يعيشها العالم والكون، مع إبداع مستمر للوسائل والإمكانات والآليات الكفيلة بالمساهمة في الخروج من هذا النفق المظلم.

هذا الوضع المأساوي الخطير الذي يعيشه الكون في الوقت الراهن ربما قد يشبه في جوهره إلى حد بعيد مرحلة أحد الأنبياء. إنها مرحلة النبي نوح عليه السلام.حين جاء أمر الله عز وجل، بعد الوضع الذي عرفته الأوضاع آنذاك، بصنع الفلك: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: 27]. وهذا الفلك الموحى به إلى سيدنا نوح هو في الحقيقة وسيلة للنجاة من الظلم وإنقاذ الحياة، ''والفلك وسيلة للنجاة من الطوفان، ولحفظ بذور الحياة السليمة كما يعاد بذرها من جديد''[62].

إن المسلمين اليوم مطالبين بصنع فلك للنجاة بالكون والإنسان مما يتهدده في الوقت المعاصر. فعند الوقوف عند ظاهر هذا النص يبقى المؤمن مترددا إزاء هذا العمل العظيم والذي يبدو مستحيلا. إذ كيف يعقل صنع فلك أو سفينة تتسع لهذا الكم الهائل من البشر والحيوان؟؟!!

لكن الخروج بهذا النص من الظاهر إلى المقصد والمرمى، أي الخروج من الألفاظ والمباني إلى المقاصد والمعاني، يتبين أو يمكن القول بأن السفينة أو الفلك المطلوب الآن، والقادر على إنقاذ الكون من المآل الخطير الذي يتهدده، هو خطاب إسلامي راشد يستوعب التحولات ويراعي مصالح الإنسان

---

(62) سيد قطب: "في ظلال القرآن"، دار الشروق، القاهرة، ط10، 1981، 4/ 2465.

ويحفظ وجوده ويخرجه من الجور إلى العدل ومن الضيق إلى السعة ومن العذاب إلى الرحمة ومن الضلال إلى الرشد... ووعيا منه بذلك ينبه الشيخ محمد الغزالي إلى أمر قريب من هذا، إذ يرى أنه ''لا نستطيع أن ننظم في سلك الدعاة امرءا لا يعرف عن العالم المعاصر شيئا، ولا عن الفلسفات التي تحكمه، ولا أسرار رجحان الإسلام عليها...

لا نستطيع أن نعد من الدعاة امرءا يريد نشر الإسلام في الغرب بنقل تقاليد وعادات يظن أنها من الإسلام، وهي في حقيقتها ليست من الإسلام، وقد تكون منفرة للقوم هناك''[63].

الفكر الإسلامي والتجديد

يمكن المجازفة والقول بأن الفكر الإسلامي لم يستطع إغراء العديد من فئات المجتمع الإسلامي بالخصوص.ذلك أنه ظل أسير العديد من المباحث التي كانت تشغل الأمة قديما. وعلى العكس من ذلك فقد استطاع الفكر الإسلامي المعاصر استقطاب العديد من الناس ليشتغلوا به، خصوصا مع التجديد الذي طاله في المرحلة المعاصرة باقتحامه العديد من المباحث التي تشغل الناس وتهمهم من مثل التجزئة والتبعية والاستقلالية والتنمية والتغريب والديموقراطية...

إن الفكر الإسلامي الذي لم ينجح حاليا في شغل الدارسين والمتعلمين من التلاميذ والطلبة على الخصوص، وقطاع كبير أيضاً من الباحثين، هو الفكر الذي ظل يدرس ويتابع قضايا ''بعيدة'' عن الواقع. والقصد هنا هو العقائد أو ما يصطلح عليه بأصول الدين أو علم الكلام.ذلك أنه ظل حبيس دراسة بعض الملفات التي يعتقد أنها قتلت بحثا ولا تحتاج إلى مزيد بحث ودراسة.

فالناس عامة لم تعد تشغلهم قضايا من مثل أصول المعتزلة، وفكر

(63) محمد الغزالي: "مشكلات في طريق الحياة الإسلامية"، كتاب الأمة، الدوحة، ع1، ط2، جمادى الآخرة 1402، ص83.

الماتريدية، وتشعبات الفرق الإسلامية وصراعاتها الطاحنة حول بعض القضايا التي تبدو في كثير من الأحيان ان الخلاف حولها لم يكن إلا ظاهريا أو لفظيا فقط. صحيح أنه في بعض الأوقات مؤخرا انشغل الناس ببعض جوانب هذه الدراسات من قبيل تيار ''السلفية'' وانعكاساتها على الواقع، أو الشيعة والتشيع بعد غزو جنوب لبنان خصوصا سنة 2006 ... لكنه في الغالب الأعم ظل هذا النوع من الفكر أو هذا التخصص بعيدا عن هموم الناس وانشغالاتهم أو لم يفهم المراد منه في احوال أخرى.

وبالعودة إلى الواقع المعاصر، يمكن ملاحظة بعض التحولات التي عرفها العالم. فقد ظل التدين السمة العامة للمجتمعات في العالم. واحتلت الديانات السماوية وغيرها من الديانات والعقائد مساحة هامة في قلوب الناس وعقولهم. حتى ارتبط الناس إما بالإسلام أو اليهودية او النصرانية من جهة، أو بالبوذية أو بالكونفوشوسية أو بالهندوسية... وكان للدين قدسيته ومكانته التي لا تمس.

غير أنه وبعد عصر الأنوار وما يعرف بالنهضة التي عرفتها أوروبا، كان الضحية الأولى وكبش الفداء الذي قدمته هذه الموضة المعاصرة هو الدين والكنيسة بالخصوص. فثارت ثائرة الغرب على الكنيسة،ومن ثم على الدين، فكان لابد من معوض للعقيدة والديانة. فظهر ''الدين'' الجديد الذي لم يكن سوى العلم. فأصبح المختبر هو المحراب والدين هو العقيدة والعالم أو الفيلسوف أو المفكر هو القس أو البابا...

فلم يكن أمام الشعوب المقهورة والمتخلفة والتي تعيش تحت نير الاستعمار والانتداب، إلا أن تختار نفس الطريق وتسير على نفس النهج، بأن تثور على دينها وتهجره. وقد قاد هذه الانتفاضة والثورة نخبة من المثقفين والمفكرين الذين تتلمذوا ودرسوا في الغرب الثائر على عقيدته، فرضع وارتوى من نفس الثدي ومن نفس الضرع.

هذه الانتفاضة -أو بالأحرى هذه الانتكاسة والتراجع- كان لها انعكاسات واسعة وتأثير واضح على المجتمع وعلى الدولة وعلى الأسرة

وعلى الفرد... من حيث التفكك الأسري وتراجع القيم والأخلاق وغياب التكافل والتراحم... وغيره من اتأثيرات السلبية والتي ليس الوقت والمكان المناسب لبحثها ودراستها.

لكن القرن الماضي وبالخصوص في أواخره بدأ العالم، ومن بينه العالم الإسلامي، بدأ يعرف رجوعا ونزوعا نحو التدين والالتزام بالدين. حتى اشتهرت المرحلة في العالمين العربي والإسلامي بمرحلة ''الصحوة الإسلامية'' أو ''الحركة الإسلامية'' أو ''اليقظة الإسلامية...'' وسجلت في العالم نزاعات وصراعات مرتبطة بالدين، وبرزت مصطلحات ''التطرف'' و''الإرهاب...'' وهذا الرجوع إلى الدين كان على الصعيد العالمي وليس على الصعيد الغربي فقط.

غير ان التطورات الفكرية والفلسفية التي شهدها الغرب، كانت جد متسارعة وكانت تسابق التحولات الاجتماعية التي تعرفها العالم. فظهرت عدة فلسفات وأفكار من قبيل الحداثة وما بعد الحداثة... غير أن العلمية والنزعة العلمية المضخمة ظلت حاضرة وبشكل قوي عند هذه الفلسفات. لكن الذي حدث هو أن التعامل مع الدين تحول من الإنكار إلى التشكيك. وهكذا ظهرت نزعة التشكيك في كل شيء وان كل شيء نسبي، والصواب ليس دائماً هو ما تدعيه هذه الجهة أو تلك، وأن القدسية ليست ملكا أو حكرا على هذه الجهة وحدها، وان الدين ليس هو السماوي فقط... وان هذه العقيدة ليست هي العقيدة الصحيحة فقط!!...

هكذا سوف يستيقظ الفكر الإسلامي في ثوب العقائد الإسلامية وعلم الكلام وأصول الدين على نقاشات وصراعات فلسفية وعقيدية في نفس الوقت لم يستشار فيها ولم يكن له دخل فيها.

لكن الفكر الإسلامي وإن لم يشارك في هذه التحولات والإشكالات فهو مطالب بالانخراط في معالجة العديد من القضايا المرتبطة بهذه التغيرات التي عرفها العالم، ومن ضمنه العالم الإسلامي والعربي. ذلك أن الغاية من علم الكلام في الأصل والمقصد منه الأساس هو الدفاع عن العقيدة الإسلامية

وتنزيهها. فإذا كان علم الكلام هو ''...المتكفل بإثبات الصانع وتوحيده وتنزيهه... واتصافه بصفات الجلال والإكرام وإثبات النبوة التي هي أساس الإسلام، وعليه مبنى الشرائع والأحكام، وبه يترقى في الإيمان... وذلك هو السبب للهدي والنجاح، والفوز والفلاح...''[64] فإنه أيضاً كما ذكر ابن خلدون''علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة''[65].

ولعل من أخطر ما يهدد الآن الشريعة والعقيدة الإسلامية في اللآونة الأخيرة دعوات التشكيك في الإسلام ومحاولة زعزعة قناعة أبنائه فيه. ويحاول اعداد هذا الدين استغلال كل ما يملكون من ادوات وآليات للوصول إلى هاته الأهداف وهذه الغايات المقيتة. مستغلين كلا من الكلمة في الإعلام بكل أشكاله والصورة في السينما والحركة في المسرح، مع إغراءات الموضة وآخر صيحاتها دون نسيان نشر الفاحشة وتسخير كل ما يشغل الناس عن دينهم وقضاياهم المصيرية والحساسة.

إن إعادة هيبة العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين وترسيخها بالإقناع والحجج وتثبيتها، يربط الناس بدينهم فيحبونه ويخدمونه ولا يبخلون على هذه العقيدة بما يملكون. وهذا دور علم الكلام والعقيدة الإسلامية في ثوبه الجديد الذي ينبغي أن يرتديه في هذا الواقع المعاصر الذي يحارب الديانات ويشكك في مصداقيتها ويشوش على المؤمنين بها.

اما على الصعيد العالمي والإنساني فالفكر الإسلامي مطالب بالمساهمة بكل وسائله وأدلته وبراهينه وحججه في إعادة الاعتبار بداية للتدين. ذلك أن المشترك الإنساني في هذا المقام ينطلق بداية من إخراج الناس من الظلمات ومن الإلحاد ومن الشك. لتأتي بعد ذلك مرحلة البناء ومرحلة التأسيس والبحث عن الدين الحق وهذه خطوة ومهمة ثانية تكون على عاتق الإنسان بالدرجة الأولى.

---

(64) عبد الرحمن بن أحمد الإيجي: "المواقف في علم الكلام"، دار الكتب، بيروت، د، ت، ص8.

(65) ابن خلدون: "المقدمة"، مؤسسة العلمي للمطبوعات، بيروت، د، ت، ص458.

إن الإسلام في بداية دعوته مع الرسول صلى الله عليه وسلم، كان -ولا زال-ينطلق من الهدم لتكون المرحلة التالية هي مرحلة بناء. فقول ''لا إله'' هي هدم وتدمير لأنقاض الشرك والإلحاد والوثنية والشك، للوصول إلى البناء في مقولة ''إلا الله محمد رسول الله''.

وبذلك فمهمة الفكر الإسلامي محورية الآن في هذا الدور الذي يسعى الإسلام إلى تحقيقها وتحاول مقاصد الشريعة الإسلامية تحديد وجهتها. فللوصول إلى حنفاء الغرب وشرفائه والحوار معهم والجلوس إلى مائدة يطرح عليها المشترك الإنساني وتفادي المصير المشؤوم للبشرية وإنقاذها، وكذلك لبناء خطاب إسلامي معاصر يراعي هذه التغيرات وهذه التطورات الخطيرة التي يعرفها الكون،فإن للعقيدة الإسلامية او علم الكلام دور مهم في إعادة الإنسان أولا إلى التدين والارتباط بالإله الخالق.

الفقه الإسلامي والتجديد:

الفقه الإسلامي هو الثمرة المباشرة لقراءة النص. وهو عند المتخصصين استخراج الأحكام الشرعية واستنباطها من النصوص بأدلتها التفصيلية، وعرفه صاحب نشر البنود بأنه ''العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من الأدلة التفصيلية''[66]

كما أن الفقه الإسلامي هو الأجوبة المتعددة عن أسئلة كثيرة تقلق أو تؤرق بال المسلم في الواقع الذي يعيشه. وهذا الواقع يتغير زمانا ومكانا، حتى اشتهر ان الفقه أو الفتوى تتغير عند العالم الواحد بتغير السائل وبتغير الواقع. وقد شاع وانتشر عند القاصي والداني ان للشافعي مذهبان، الأول بالعراق، والثاني حين انتقل إلى مصر.

والفقه الإسلامي هو الصورة الحقيقية للعقل الإسلامي، وهو الذي يعكس الوضع الحقيقي للمجتمع المسلم. إذ يظهر المستوى المعرفي والحالة

(66) سيدي عبد الله بن الحاج العلوي: "نشر البنود شرح مراقب السعود"، تحقيق: محمد الأمين بن محمد بن بيب، الإمارات، ط1، 2005، ص67.

الاجتماعية والأخلاقية والنفسية... للفرد والمجتمع. فالأسئلة المطروحة والاستفتاء المبسوط أمام الفقيه يبين المستوى المعرفي للسائل والمستفتي، كما ان الإجابة والفتاوى تعطي صورة واضحة عن المثقف والفقيه في المجتمع الإسلامي.

وقد اشتهر الفقه الإسلامي بسمات ومميزات عدة يمكن الإشارة إلى بعضها في ما يلي:

يتميز الفقه الإسلامي والتراث الإسلامي عامة بنقطة مهمة، يحاول العديدون تصويرها على أنها سلبية من سلبيات هذا العلم، وهي المتعلقة بالاختلاف الكبير الموجود في الفقه. والحقيقة أن هذه الاختلافات كثيرة جدا تمتد في مساحات وحقول واسعة داخل هذا العلم بين الفقهاء والعلماء على مختلف مذاهبهم، بل قد يمتد ذلك إلى داخل المذهب الواحد، حتى انه يصعب تصور حكم من الأحكام لم يعرف هذه الميزة، إلى الحد الذي قد يتصور معه أن الشريعة الإسلامية قاصدة إلى هذا الاختلاف، أو بالأحرى هذا التنوع والتعدد. والذي لا مراء فيه ان الاختلاف والتنوع في الفقه والثقافة الإسلامية مادام داخل الدائرة الشرعية ولم يخرج ليتطاول ويتجرأ على الحدود والضوابط الشرعية، فهو بمثابة اعتراف بمختلف الآراء والإقرار بها، مما يشكل اعتراف بحرية الفكر والتعبير من جهة.كما يعتبر هذا التنوع والتعدد خصوصا في الفقه وما يرتبط به من استنباط للأحكام الشرعية مدخلا مهما للبحث عن الحكم الشرعي الملائم والمناسب في الوقت والمكان المراعى في تبني الحكم وتنزيله على أرض الواقع.

كما يتميز الفقه الإسلامي خصوصا بمرونته وقدرته على التجاوب والتفاعل مع مختلف الأحوال والظروف التي يعيشها الإنسان.هذه المرونة وهذا الاستيعاب للتحولات الذي تتميز به الشريعة -ومن ثم الفقه الإسلامي- تمثلت بداية منذ الفترات الأولى التي تجسدت فيها هجرة عدد كبير من القراء والعلماء من الصحابة رضوان الله عليهم، حين استطاعوا وبجدارة فائقة تجسيد هذه المرونة في مجتمعات خارج دائرة المدينة ومكة. ثم تزايد وتوسع هذا التجسيد إبان فترة الفتوحات الإسلامية التي غمرت شعوبا وقبائل وثقافات

جديدة ومتنوعة حين استطاع الإسلام استيعاب كل هذا بسلاسة ومرونة متميزتين. إن الأمازيغ والزنوج والفرس والهنود... شعوب وثقافات تكاد تقف فيما بينها على جانب تناقض في كثير من عاداتها وتقاليدها ودياناتها... ومع كل ذلك استطاعت الشريعة أن تحافظ على الكثير من ثقافاتهم وتعترف به ما دام لا يناقض عقيدة التوحيد، ثم وجهت ما بقي منها ليتناسب مع التوجه الرباني لهذا الدين. كما استطاع الفقه الإسلامي والثقافة الإسلامية الإجابة على كل التحديات التي واجهت هذه الشعوب والحضارات المختلفة والمتعددة.

إذا كان الفقه الإسلامي يستجيب دائماً للتحديات التي عاشها الناس طيلة عصور متوالية، فإن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال ان هذه التحديات ستتوقف عند حد ما أو أن هذه الأسئلة التي تواجه الناس ستبقى قائمة في كل مرحلة وبنفس الصيغة وبنفس الدرجة. مما يعني استمرار الاجتهاد والتجديد الذي يساعد الناس وييسر لهم سبل الارتباط بهذا الدين، لذلك ''فالاجتهاد حركة دائمة مستمرة والآراء الاجتهادية أيا كانت منزلة أصحابها من الفقهاء لا يجوز إسباغ صفة الثبات عليها، فالثبات لنصوص الكتاب والسنة دون غيرهما، اما الاجتهاد فينبغي ان يساير الواقع المتغير دائماً حتى يحقق مقاصد الشريعة، أما تجميده واقتصار الدراسة الفقهية على نقل اقوال السابقين وحفظها وتكرارها فهو من أسباب توقف النمو في حياة الأمة الفكرية عموما والفقهية خاصة''[67].

ولا ينبغي ان يفهم من هذه الدعوة إلى التجديد، حالة اهستيريا أو الموضة التي تنتاب الكثيرين من المنهزمين أمام كل دعوة إلى التجديد أو التقزز من كل ما هو أصيل ومن تراث الأمة. كما لا ينبغي تصور التجديد كما يعتقده البعض، حيث يظنون ان التجديد هو الثورة على القديم والسابق دون سبب والقطع معه دون ضوابط للانطلاق نحو الافاق بدو قيود. كلا فـ''إن

---

(67) جمال الدين عطية: "تجديد الفقه الإسلامي"، بالاشتراك مع وهبة الزحيلي، دار الفكر-دمشق-ط: 1، 2000، ص21.

الدعوة لتجديد الفقه الإسلامي مقبولة ضمن إطار معين، وقيود وضوابط محددة، ولا تقبل هذه الدعوة على إطلاقها، فبعض احكام الفقه غير الصالحة لعصرنا يمكن تجديده''[68].

إن الفقه والتراث الثقافي الذي ينبغي أن يعرض على البشرية الآن، وقد قطعت أشواط كبيرة في التمدن والتطور المادي المنعكس على واقعها الاجتماعي والثقافي، ينبغي ان يكون في مستوى العصر والتحديات. فلا يعقل تقديم فقه للناس في الوقت الراهن -مسلمين أو غير مسلمين- وفيه تناول لأحكام العبيد، وأحكام الإيماء، وأحكام اهل الذمة... كما لا يعقل ان يتضمن هذا الفقه الحديث عن دار الحرب ودار الإسلام...

والسبب وراء ذلك واضح وجلي، ففي الوقت الذي تتجه البشرية للقضاء على الرق والعبيد والاسترقاق-وقد كان الإسلام سباقا إلى ذلك- وكل أنواع العبودية، فلا ينبغي للفقه الإسلامي ان يتراجع القهقرى. وكذلك في الوقت الذي يسعى الناس إلى التوحد والتجانس ومراعاة المشترك الإنساني والبحث عن القواسم المشتركة مع البشرية-وقد كان للإسلام سبق في ذلك-لمواجهة المصير الذي يهدد الجميع، فمطلوب من الفقه الإسلامي أن يزكي ذلك وألا ينتكس ويكرس الانقسام والتنافر بين المجتمعات...

إن الفقه الإسلامي في الوقت الراهن مطالب بفتح ملفات وقضايا شائكة تؤرق بال الإنسان المعاصر، وهي تتلف من قضايا شخصية فردية وتتداخل مع قضايا اجتماعية واقتصادية وكونية. فقضايا كونية حقوق الإنسان تحتاج إلى دراسات عميقة وجادة، وقضية اللجوء إلى الأمم المتحدة وما ينتج عنها من ظلم لحقوق الشعوب، وقضايا ما يصطلح عليه بـ''تحقيق مصير الأقليات''، وقضايا المنشطات التي أرقت ولا تزال تؤرق الجسم الرياضي الغربي وما ينتج عمها من انعدام تكافئ الفرص وانعكاسات صحية خطيرة، وقضايا الإرهاب العالمي المتعدد الألوان والأشكال، والاعتداءات الدولية المتكررة على كثير من الشعوب-وللأسف الشديد اكثرها من المسلمين كفلسطين، وكشمير... -

(68) وهبة الزحيلي: "تجديد الفقه الإسلامي"، (م، س)، ص169.

وكذلك الحسم في الكثير من المعاملات المالية المعاصرة التي تشوبها الربا، وقضايا القرصنة الإلكترونية، والتعامل مع الأجهزة الإلكترونية القرآنية من غير طهارة أو دون وضوء، وكذلك المساهمة في النقاش والحوار الدائر حول حرية العقيدة والدين، والبحث عن الحلول المعاصرة في قضايا تتعلق بالإباحية الجنسية وحقوق الشواذ...

وهكذا فإذا كان الانفتاح على العالم وعلى الإنسان مقصد مهم من مقاصد الشريعة الإسلامية،للحوار وللتواصل مع البشرية والتعاون معها، فلأمر يحتاج إلى خطاب إسلامي يراعي هذه القضية، خطاب يخرج بالإسلام والمسلمين من القطرية والإقليمية الضيقة، إلى العالم والكون والإنسانية الأرحب. ومن مراعاة ذلك أن يستطيع الفقه الإسلامي تجسيد قدرته على استيعاب الخصوصيات المتعددة للأجناس والأعراق والثقافات المتنوعة والمتعددة. ولتحقيق هذا فالفكر الإسلامي أو علم الكلام مدعو للمساهمة بفعالية لمناقشة العديد من الأمور التي تهدد البشرية وخصوصا مصير الديانات والتدين، كما لا ينبغي للفكر الإسلامي-وهو كذلك مكون أساس من مكونات الخطاب الإسلامي-أن ينأى بنفسه بعيدا عن هموم الناس ولا يعينونهم في رفع الحرج والمشقة الفكرية والنفسية التي يعاني منها الكثير من الناس في العالم على اختلاف دياناتهم وثقافاتهم وحضاراتهم...

خاتمة:

إن العالم والبشرية الآن في أمس الحاجة إلى من يأخذ بيده، ويعينه على حل مشاكله الكبرى. حيث إن الحكيم ''والعاقل الواعي الذي لم يأخذه الدوار الذي يأخذ البشرية اليوم. حين ينظر إلى هذه البشرية المنكودة يراها تتخبط في تصوراتها، وأنظمتها، وأوضاعها، وتقاليدها، وعاداتها، وحركاتها كلها تخبطا منكرا شنيعا... يراها تخلع ثيابها وتمزقها كالمهووس! وتتشنج في حركاتها وتتخبط وتتلبط كالممسوس... يراها تغير أزياءها في الفكر والاعتقاد، كما تغير أزياءها في الملابس، وفق أهواء بيوت الأزياء!... يراها تصرخ من الألم، وتجري كالمطارد، وتضحك كالمجنون، وتعربد كالسكير، وتبحث عن

لاشيء! وتجري وراء أخيلة! وتقذف بأثمن ما تملك، وتحتضن أقذر ما تمسك به يداها من أحجار وأوضار!

... إنها تقتل الإنسان وتحوله إلى آلة... لتضاعف الإنتاج''[69].

وقد اصبح هذا الأمر علنيا وجهريا، ذلك أن الغرب الآن في حقيقة امره قد استسلم أو كاد يعلن استسلامه نهائيا وعجزه عن طرح بدائل وحلول لما يعانيه عالمه من ظروف قاهرة اختلط فيها الاقتصادي بالسياسي بالاجتماعي... لتتعقد الأمور أكثر وتتشعب أكثر فأكثر.

كما ان هذا المصير الأسود والمظلم الذي يهدد الغرب، لا يميز بين الغرب المسؤول الأول عن هذا المآل الخطير، وغيره من الشعوب المقهورة على امرها وغير مسؤولة عما يتجه إليه العالم. فالدمار والخراب الذي يهدد البشرية أعمى وحاطب ليل لا يمكنه ولا يستطيع التمييز. وبذلك فالعالم كله مهدد في وجوده وفي مصيره. ولربما هي أسوأ حالة تواجهها البشرية عبر التاريخ، وهذا ناتج في كل الأحوال بسبب غطرسة وطغيان وجبروت الإنسان الذي لم يرد أن يعرف حجمه الحقيقي في هذا الكون، ومن ثم دوره في هذا العالم وهذا الكون.

ومع كل ذلك فالغرب استمر في طغيانه وجبروته واستكباره. ففي غمرة ضلاله عن الحلول وفي غمرة التيهان والضيق الذي يعيشه يستمر في البحث عن الحلول في كل الاتجاهات دون اعارة أي اهتمام يذكر للثقافة والفكر الإسلامي. فانطلق إلى الثقافات الإفريقية المحلية الوثنية، التي استعمر شعوبها وأذاقها ويلات العبودية والاسترقاق، لقراءتها عساه يجد فيها مبتغاه. كما توجه إلى أدغال الأمازون في أمريكا اللاتينية التي أباد أجدادها الأوائل ويقضي فيها على حضارتهم متطلعا إلى بعض قشور الحل من بقايا التراث لهذه الشعوب الذي نجا من دمار وخراب هذا الرجل ''الأبيض.'' وانطلق إلى

---

(69) سيد قطب: "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته"، دار الشروق، بيروت، ط7، 1980، ص91.

الحضارات الشرقية الآسيوية التي طالما احتقرها ولم يعتبرها حضارة وثقافة تملك مقومات شخصيتها المتميزة، باحثا عن حلول لمشاكله المتراكمة عند الهندوس والبوذ والسيخ...

إن الغرب عوض أن يختصر المسافة ويقصد الثقافات والحضارات التاريخية التي تجسد قيمة حقيقية في المجال الذي نحن بصدده، فقد ذهب في الطريق الملتوي وغير السوي. فبدل أن يسير بشكل سوي وبوضوح فهو يسير بشكل أقل ما يقال فيه فهو أعرج ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: 22].

ورغم كل هذا فالمسؤولية الكبرى على أبناء هذا الدين من العلماء والمتخصصين. لأن المسلم مأمور بالتبليغ وإيصال هذا الدين وهذه الرسالة إلى الناس وإلى كل من يحتاجها. وذلك طبعا مع مراعاة التدرج والأولويات والاستطاعة.

إن أولويات المرحلة والتدرج في التبليغ يلزمان المسلمين بالانخراط بكل مسؤولية وأمانة من أجل تحقيق الإسلام على الأرض وعلى الواقع ومن ثم تبليغ الرسالة على أحسن وجه. وتبليغ الرسالة الإسلامية لا ينبغي اختصاره فقط في الوعظ والإرشاد والتوثب الروحي وتزكية النفوس وتطهير القلوب، مع الاعتراف بالدور الكبير الذي يؤديه الوعظ والإرشاد والجانب الروحي في الثقافة والحضارة الإسلامية، بل بالإضافة إلى ذلك فالمسلمون ملزمون بالعمل الجاد والإيجابي في هذه الحياة، ولعل من أهم مظاهره، في هذه اللحظات التاريخية العصيبة،على إنقاذ البشرية من المصير الخطير الذي يتهددها.وبذلك يكون المسلمون قد خطوا خطوات مهمة في تحقيق البعد الكوني الذي تتوخى الشريعة الإسلامية تحقيقه. ولن يتحقق ذلك على الوجه السليم إلا إذا كان الحضور القوي لمقاصد الشريعة الإسلامية في التخطيط والتفكير من أجل تنزيل الحكام الشرعية، مع مراعاة مصالح الناس والتيسير عليهم ودرء المفاسد وكل ما يجعل حياتهم شاقة وعسيرة. وهذا النفس المقاصدي البعيد المدى الذي يهتم بالإنسان في كل أبعاده الروحية والمادية، الدنيوية والأخروية، في الآجل والعاجل،يتمتع به دين الله عز وجل دون غيره من الديانات

والفلسفات والأفكار، وذلك بفضل الرؤية او التصور أو المنظار، الذي يوسع آفاق هذا الدين وهذه الشريعة الرحيمة والتي عنوانها الرحمة والعدل ورفع الحرج ودرء المفاسد وجلب المصالح.

أهم المصادر والمراجع المعتمدة:

- ابن الجوزي : "زاد المسير في علم التفسير"، دار ابن حزم-بيروت- ط: 1، 2002 . ابن القيم: "اعلام الموقعين عن رب العالمين"، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، د.ت.
- ابن خلدون: "المقدمة"، مؤسسة العلمي للمطبوعات-بيروت- د، ت.
- ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة-بيروت-ط: 2، 1982.
- ابن هشام: "سيرة النبي صلى الله عليه وسلم" تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر-بيروت- 1981.
- أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية (456ه): "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية-بيروت- ط: 1، 2001.
- البخاري: "الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه"
- عبد الله بن عمر البيضاوي (685 هـ) : "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" ومعه حاشية شيخ زاده، المطبعة العثمانية، 1415
- جمال الدين عطية، وهبة الزحيلي: "تجديد الفقه الإسلامي" بالاشتراك مع وهبة الزحيلي، دار الفكر-دمشق-ط: 1، 2000،
- جويل ك. بورن.ج.ر.: "نهاية الوفرة"، ترجمة: حمدي أبو كيلة، الثقافة العالمية-الكويت-ع: 162، سبتمبر/أكتوبر 2011
- خالد حاجي: "الجغرافيا بين الشاعرية والسياسة نماذج من الفكر الغربي المعاصر" المنطلق-وجدة-ع: 10/ 1995.
- روجيه غارودي: "وعود الإسلام" ترجمة مهدي زغيب، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 1، 1984.
- روسيمري فوت: "حقوق الإنسان في خضم الصراع"، ترجمة شاهر عبيد، الثقافة العالمية-الكويت- ع: 150 سبتمبر/أكتوبر 2008،
- سيد قطب: "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته" دار الشروق-بيروت، ط7، 1980.
- سيد قطب: "في ظلال القرآن"، دار الشروق-القاهرة-ط: 10، 1981

- سيدي عبد الله بن الحاج العلوي: ''نشر البنود شرح مراقب السعود'' تحقيق:محمد الأمين بن محمد بن بين، الإمارات، ط:1، 2005.
- عبد الرحمن بن أحمد الإيجي: ''المواقف في علم الكلام''، دار الكتب - بيروت، د.ت، ص8.
- عبد الله بن عمر البيضاوي (685 هـ) : ''أنوار التنزيل وأسرار التأويل'' ومعه حاشية شيخ زاده، المطبعة العثمانية، 1415
- عبد المجيد النجار: ''مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة''، دار الغرب الإسلامي، ط:2، 2008
- عدنان جرجس: ''الأرض تدق أجراس الخطر''، ترجمة: عبد المنعم السلمون، الثقافة العالمية-الكويت-ع:132، سبتمبر 2005.
- علال الفاسي: مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، مطبعة النجاح، ط: 4، 1991.
- علي عزت بيجوفيتش: ''الإسلام بين الشرق ''مؤسسة العلم الحديث-بيروت-ط:1، 1994،
- اللجنة العالمية للبيئة والتنمية: ''مستقبلنا المشترك''، ترجمة: محمد كامل عارف، عالم المعرفة-الكويت-ع:142، أكتوبر
- لستر ثارو: ''الصراع على القمة'' ترجمة أحمد فؤاد بلبع، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع:204.
- مايكل زيمرمان: ''الفلسفة البيئية'' ترجمة:معين شفيق رومية، عالم المعرفة-الكويت-ع:332، أكتوبر 2006.
- محمد أحمد مفتي، وسامي صالح الوكيل، «النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية، دراسة مقارنة'': كتاب الأمة-قطر- ع:25، شوال 1410.
- محمد الطاهر ابن عاشور: ''مقاصد الشريعة الإسلامية''، البصائر للإنتاج العلمي، ط: 1، 1998.
- محمد الطاهر ابن عاشور: ''التحرير والتنوير'' الدار التونسية للنشر، (د، ت)
- محمد الغزالي: ''مشكلات في طريق الحياة الإسلامية'' كتاب الأمة-الدوحة- ع:1، ط:2، جمادى الآخرة 1402، ص83.
- محمد بن الكريم الشهرستاني : "الملل والنحل"مؤسسة الكتب الثقافية (بيروت)، ط:1، 1994.
- مراد هوفمان: ''الإسلام كبديل''مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام والخدمات ومجلة النور الكويتية، ط:1، 1993.
- مسلم: ''المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم''

- منير حميد البياتي: ''حقوق الإنسان بين الشريعة والقانون''، كتاب الأمة-قطر-ربيع الأول 1423، ع: 88، س: 22.
- النسائي: ''السنن الكبرى.''
- هانس بيترمارتين وهارالد شومان: ''فخ العولمة'' ترجمة وتقديم عدنا عباس علي، ومراجعة وتقديم رمزي زكي، عالم المعرفة-الكويت-ع: 295، ط: 2، أغسطس 2003.
- هورست أفهيلد: ''اقتصاد يغدق فقرا''، ترجمة عدنان عباس علي، عالم المعرفة-الكويت-ع: 335، يناير2007
- والدن بيلو ومارا بافيرا: ''حروب الغذاء''، ترجمة: إنصاف البابر، الثقافة العالمية-الكويت- ع: 162 سبتمبر/أكتوبر 2011.
- يوسف القرضاوي: ''رعاية البيئة في شريعة الإسلام''، دار الشروق-القاهرة- ط: 2، 2006.
- يوسف القرضاوي: ''أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة'' مؤسسة الرسالة-بيروت-ط: 13، 1992.